

الفصل الرابع

المرحلة الرابعة من حروب الاسترداد في الطور الثاني

(مرحلة القاهرة)

قرانا من قبل ان المؤرخ اللاتيني وليم الصوري المتسوف سنة ١١٨٥ م قد تنبأ بزوال مملكة القدس الصليبية من الوجود على ايدي صلاح الدين ، وهذا ماكان إثر النصر المبين في معركة حطين ، ففي هذه المعركة دمر - كما رأينا - المسلمون المؤسسة العسكرية الصليبية التي كانت لقرابة قرن مضى اداة رعب في المشرق وقام صلاح الدين إثر ذلك باستغلال نصره احسن استغلال فحرر بسرعة خاطفة وببراعة كبيرة معظم الاراضي والقلع التي كانت في ايدي الصليبيين بما في ذلك بيت المقدس ، وتمت عمليات التحرير دون سفك كبير للدماء وبلا مغنم ومنهوبات فقد كان صلاح الدين باخلاقه ومبادئه وموارثيه السامية بحكم انتمائه الى الحضارة العربية الاسلامية العريقة ، رجل تحرير ولم يكن رجل عدوان (١) .

ومع نهاية عام ١١٨٧ م كان ما بقي للصليبيين في بلاد الشام لايتعدى شريطا ساحليا ضيقا توزع حول صور وطرابلس وانطاكية ، وسعى صلاح الدين الى تحرير هذه المناطق لكنه لم يتمكن من ذلك وصارت الان مدينة صور مركز تجمع للصليبيين في الشرق ومنها جرت مراسلة اوروبا الغربية طلبا للنجدة ، واثارت الانتصارات التي حققها صلاح الدين حملة صليبية جديدة اطلق عليها اسم الحملة الصليبية الثالثة وقد تزعمها ملكا فرنسا وانكلترا وجرت مواجهات قاسية بين قوات هذه الحملة وصلاح الدين تمركزت حول مدينة عكا ، وضيق الصليبيون الخناق على هذه المدينة وعندما سلمت اليهم غدر ريتشارد قلب الاسد بالمسلمين فقتلهم

جميعا غدرا وخيانة وبذلك اضاف الى السجل الدموي لتاريخ الصليبيين في الشرق صفحة مخزية جديدة ، وتابع صلاح الدين تصديه للسهيل البشري الذي تدفق من اوروبا الى ان تمكن في ٢٣ شعبان ٥٥٨ هـ - ٣ ايلول ١١٩٢ م من عقد صلح الرملة مع قادة الحملة الثالثة ، وكان هذا الصلح عبارة عن هدنة غادر بعدها ريتشارد عكا عائدا الى اوروبا ، وكذلك فعل فيليب ملك فرنسا ، كما توجه صلاح الدين نحو القدس ، ومن القدس ذهب الى دمشق حيث استقر في قلعتها معلنا عن نيته القيام بالحج ، لكنه اصيب بمرض الزمه فراشة قرابة اسبوعين ، وفي صباح يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة - الموافق ٤ اذار ١١٩٣ م توفي صلاح الدين ، فعم (القلعة والبلد والدنيا من الحزن مالا يعلمه الا الله تعالى ، وبالله - يقول ابن شداد - لقد كنت اسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وماسمعت هذا الحديث الا ضربا من التجوز والرخص الا ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري انه لو قبل الفداء لفدي بالنفس) (٢) .

لاشك ان وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة كبرى لعرب الشام ومصر وللعالم الاسلامي اجمع وهو باعتراف جمهرة المؤرخين قديما وحديثا في الشرق والغرب كان اعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية ، وما يزال يتمتع عبر العصور بشهرة ومكانة لم ينلها قائد اخر ، فشهرة صلاح الدين في اوروبا قد تكون اعظم منها في الشرق ، وجميع الذين كتبوا عنه اشادوا بقوته وعدله وتسامحه وادسانيته .

لقد ترك صلاح الدين خلفه دولة واسعة الاطراف وفراغا كبيرا لم يستطع احد من ابنائه السبعة عشر او اخوانه او ابناء اسرته ان يملاه ، واصاب ابن شداد بقوله واصفا انه « لم يصب الاسلام والمسلمين بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين » لقد انذرت وفاة صلاح الدين بقيام منازعات بين ورثته حول تقسيم التركة الضخمة

التي خلفها وحدث هذا في الوقت الذي كان فيه هنري دي شامبين ملك مملكة القدس الصليبية يعمل على توحيد صفوف الصليبيين في انطاكية وارمينيا وقبرص وعكا ، ومن القاء نظرة سريعة على وضع الدولة الايوبية عند وفاة صلاح الدين ندرك مدى المخاطر التي كانت تتهددها وتتهدد وحدتها وكيانها ، ذلك ان صلاح الدين اعتمد قبل وفاته على تعيين اولاده حكاما على المناطق الرئيسية في دولته ، كما استعان ببعض اقاربه وكان الملك الافضل نور الدين علي وهو الابن الاكبر لصلاح الدين ملازما لابيه عند وفاته ، فاحتفظ بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين الى الداروم ، وكان الملك العزيز عثمان وهو الابن الثاني لصلاح الدين في مصر وقت وفاة ابيه فاحتفظ بها واخذ الابن الثالث الملك الظاهر غازي حلب وجميع اعمالها مع شمالي بلاد الشام ، واختص الملك العادل سيف الدين ابو بكر اخو صلاح الدين بالكرك والشوبك والاردن فضلا عن بعض مناطق الجزيرة وديار بكر .

لقد توزع بقية ابناء صلاح الدين وابناء بيته المناطق الاقل اهمية فاخذ الظافر خضر بصرى وهوران ، واخذ الامجد بهرام شاه بن اخي صلاح الدين بعلبك ، واخذ المجاهد شيركوه الثاني بن محمد بن شيركوه حمص ، واخذ المنصور الاول محمد بن تقي الدين عمر حماة ، واختص سيف الاسلام طغتكين وهو الاخ الرابع لصلاح الدين باليمن واجزاء من جزيرة العرب .

وعندما توفي صلاح الدين استيقظت مطامح ابناء البيوت القديمة في الجزيرة وغيرها لاسيما افراد البيت الزنكي والارتقي واخذ كل واحد يفكر بمملكة وبالتوسع (٣) ، وهذه النظرة السريعة على اوضاع الدولة التي وحدها صلاح الدين تجعلنا ندرك ان الايام عادت سيرتها الاولى وان تمزق البلدان المحيطة بالصليبيين لن يضر غير المسلمين ، وكان صلاح الدين قبل وفاته قد اوصى بالسلطنة من بعده لابنه الافضل صاحب دمشق ، بمعنى جعله صاحب السلطة العليا في جميع انحاء الدولة الايوبية ، لكن الافضل لم يكن الاختيار المناسب

لضعفه وسوء سيرته ، فقد اتهمه ابو الفداء بأنه كان يشرب الخمرة ويقضي ليله ونهاره في اللهو وسماع الاغانى وقال المقرئزي : انه « اقبل على اللعب ليله ونهاره وتظاهر بلذاته » ووصفه ابو المحاسن في نجومه « بالملك النوام » ، لانه احتجب عن الرعية واشتغل باللهو وزاد من كراهية الناس له تخليه عن رجالات ابيه ووضع ثقته في وزير جديد هو ضياء الدين ابن الاثير ، اخي المؤرخ المشهور ، ولذلك فر المستبعدون من اركان دولة صلاح الدين الى مصر واستعدوا الملك العزيز على اخيه الافضل ، فخرج العزيز من مصر في صيف سنة ١١٩٤ م قاصدا الشام وشرع في محاصرة دمشق الامر الذي جعل الافضل يستنجد بعمه العادل .

من الثابت ان الملك العادل لم يكن راضيا عن نصيبه من تركة اخيه صلاح الدين وكان نكيا ماكرا حازقا صبوراً ، فيه اناة وتؤدة ، ورأى في استنجد الافضل به فرصة ينبغي عدم تضييعها ، لكنه احتاط للامور فالتقى الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، وبالمصور محمد صاحب حماه ، وبشبيركوه صاحب حمص ، وبالامجد صاحب بعلبك واتفق معهم على منع العزيز من الاستيلاء على دمشق لانهم راوا ان الاستيلاء على دمشق يهدد ممالكهم جميعا ، وادرك العزيز عدم قدرته على محاربة امراء بني ايوب جميعا فانصرف عائدا الى مصر ، وقبل انسحابه اجتمع به الملك العادل خارج دمشق وطيب نفسه واعطاه احدى بناته زوجة له . وصنع معه تسوية احتفظ بموجبها الافضل بدمشق ومعها طبرية واعمال الغور ، واخذ الملك الظاهر جبلة واللاذقية ، واخذ الملك العزيز بيت المقدس وماجاوره من اعمال فلسطين ، وثبت خلال هذا كله ان العادل هو رجل بني ايوب وانه حريص على وحدة البيت الايوبي والدفاع عن مصالح المسلمين ضد الصليبيين ، ويقول ابو المحاسن ان العادل عندما التقى بالملك العزيز قال له : « لاتخرب البيت الايوبي ، وتدخل عليه الآفة والعدو ورائنا من كل جانب ارجع الى مصر واحفظ عهد ابيك » .

وثبت ان هذه التسوية التي صنعها العادل كانت مؤقتة وان ماحدث لم يستفد منه الأفضل لتغيير سياسته ، فكان ان خرج العزيز في العام التالي من مصر يريد دمشق ، واستنجد الأفضل مجددا بعمه العادل وقام العادل بتحريض أمراء العزيز عليه واستمالهم اليه ، ونجحت خطة العادل فاضطر للعودة الى مصر واتفق عدد من الأمراء على عزل العزيز عن مصر واحلال الأفضل محله واعطاء دمشق للعادل ، وجمع الأفضل والعادل جيوشهما وزحفا نحو مصر وقبل الوصول الى القاهرة راسل العادل العزيز سرا وطلب منه الثبات لأنه - أي العادل - شعر ان الأفضل لن يسلمه دمشق وأخفقت الحملة وعاد الأفضل الى دمشق ، وبسرعة ازداد السخط عليه فيها ، وهنا وجد العادل ان الظروف باتت مواتية لعزل الأفضل فذهب الى العزيز عثمان وعقد معه اتفاقية لتحقيق هذا الغرض وفي صيف عام ١١٩٦ م سقطت دمشق للعزيز والعادل وحل العادل محل الأفضل في دمشق ، واخذ العزيز لقب السلطنة وبقيت مصر له .

لقد تركت هذه النزاعات أثارا سلبية على الدولة الأيوبية واثارت رغبة الصليبيين وأطماعهم في استرداد بعض القلاع والحصون ، وفي الافادة من الصراعات بعقد اتفاقات جانبية والحصول على تنازلات. من أمراء بني أيوب .

وفي عام ١١٩٢ م توفي العزيز صاحب مصر وكان ابنه الأكبر محمد في العاشرة من عمره ، لذا جرى استدعاء العادل الى مصر من قبل بعض الأمراء لكن أمراء آخرين استدعوا الأفضل من حوران وسلموه شؤون مصر ، وإثر هذا اتفق الأفضل مع أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب بالعمل ضد عمهما وانتزاع دمشق منه ، وحوصرت دمشق من قبل جيوش الأفضل والظاهر ، وفي أثناء ذلك الحصار استطاع العادل استغلال سوء تدبير الأخوين فأوقع الخلاف بينهما ، واشترى زمم عدد من افراد جيشهما فاضطر الأفضل للعودة الى مصر ، والظاهر الى حلب ، ولم يترك الملك

العادل الافضل يعود بسلام بل لاحقه الى مصر وتمكن من انتزاع القاهرة منه ، وفي سنة ١٢٠٠ م استبد العادل بملك مصر وصار أقوى رجالات البيت الأيوبي ، حيث تمكن بعد فترة من انتزاع الاعتراف بسيادته من ابناء أخيه ، ونجح العادل في توحيد اجزاء كبيرة من الدولة الأيوبية من جديد ، وحين أعاد تنظيم الدولة استعان بابنائه كما فعل صلاح الدين من قبله (٤) . لذلك كانت هذه الوحدة مؤقتة ترتبط ببقاء العادل على قيد الحياة .

وازداد في هذه الآونة نشاط الحملات حيث كانت الحملة الرابعة التي استولت على القسطنطينية ، ثم حملة الاطفال سنة ١٢١٢ م ، والحملة الهنغارية سنة ١٢١٧ م ، وحملة جنادي برين الكبرى ضد مصر سنة ١٢١٨ م ، ثم الحملة الصليبية الخامسة واخفقت هذه الحملات جميعا .

وحين جاءت الحملة الصليبية السادسة بقيادة فريدريك الثاني كان التمزق الأيوبي والصراع الداخلي على أشده ، لذلك استطاع فريدريك على الرغم من حرمانه كنسيا ومن قلة أعوانه استعادة بيت المقدس من الأيوبيين سلما فدخلها في ١٧ آذار ١١٢٩ م وتوج فيها ملكا على القدس ، ثم مالبت ان اخذ طريق العودة الى اوربا .

في هذه الأثناء كانت الأوضاع السياسية في المشرق العربي الاسلامي قد شهدت تطورات كبيرة بسبب ظهور المغول على مسرح الأحداث ونتيجة للأعمال التوسعية التي قام بها جنكيزخان ، فقد استولى جنكيزخان فيما استولى عليه على دولة خوارزم شاه ، وجاء نحو اطراف الدولة الأيوبية فلول الجيوش الخوارزمية ، وعلى رأسهم السلطان جلال الدين منكبرتي ، ولم يكن الخوارزمية أقل عنفا ووحشية من المغول انفسهم وقد هددوا اراضي الدولة العباسية والممتلكات الأيوبية في أعمال الجزيرة واربينية ، وخلال الفوضى والاضطراب قتل جلال الدين منكبرتي وتشتت قوات الخوارزمية ودخل بعضها الشام كمرتزقة ، وباتت

معظم السبل مفتوحة أمام المغول للتقدم نحو العراق والجزيرة والشام .

لقد استخدم أمراء بني أيوب الخوارزمية في حروبهم وصراعاتهم على السلطة ، ودون الدخول في تفاصيل هذه الصراعات المدمرة ، يكفي ان نشير الى ان الصالح أيوب تمكن بمساعدة الخوارزمية من استرداد القدس (٥) ، مما أثار قيام الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وجاءت الحملة الفرنسية تريد مصر ، وحققت في البداية بعض النجاحات لكنها اخفقت وفي اثناء التصدي لها توفي الصالح أيوب (٦) وكان حدث وفاته نقطة تحول سياسي كبير في تاريخ مصر وبلاد الشام تحتاج الى وقفة متأنية بعض الشيء لأنها خطت بداية النهاية ، نهاية الحكم الأيوبي وقيام الحكم المملوكي ، هذا ويلاحظ أن الصراعات بين أمراء بني أيوب قد انعكست على أوضاع بلاد الشام ومصر فأضرت بالاقتصاد وسببت هزات اجتماعية متوالية كما انها افقدت الأيوبيين الاحترام الذي حققه صلاح الدين لهم .

كانت الدولة التي اسسها صلاح الدين قد تبنت ايامه نظام الاقطاع العسكري وقد ساعد هذا النظام على زيادة التمرقات وتعميقها بعد صلاح الدين ، وبالنظر لاستمرار الصراعات الداخلية بين افراد البيت الأيوبي ولعدم توقف التهديدات الصادرة عن الفرنجة وسواهم اضطر أمراء بني أيوب الى زيادة حجم جيوشهم عن طريق الرقيق الأبيض وعن طريق المرتزقة ، وكان جل الرقيق الأبيض الذي استخدم في جيوش المشرق العربي من اصل تركي .

لقد كان ايضا من جملة النتائج التي نجمت عن الحروب الصليبية ان بلاد الشام ومصر قد شهدتا تطورا كبيرا في ميادين الفنون العسكرية من تسليح وتدريب حيث تحول العمل العسكري الى احتراف خضع لقواعد خاصة للتدريب والتسرفي في المراتب ، والمستعرض لتاريخ الجنود من اصل تركي منذ ايام

المعتصم بالله العباسي يرى أن الغلمان الأتراك ما أن ملكوا القوة العسكرية حتى تطلعوا نحو السلطة فتمرد بعضهم على أسياده . وسعى بعضهم الى التحكم بالخلافة وظلت سمة التطع نحو السلطة ملازمة للعسكريين المسلمين ، حتى أن صلاح الدين نفسه كان من هذا الصنف ، فهو ما أن صار سيد مصر حتى أخذ يوسع ملكه ، ومعارك صلاح الدين الداخلية أكبر عددا من معاركه ضد الفرنجة ، ولايعنينا هذا الموضوع بقدر أن نخلص الى ماقاله الباحثون — أن الملك الصليبي الحايوب (٦٣٧ هـ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) قد أكثر بعدما تسلم عرش مصر من شراء المماليك الأتراك واعتنى بهم عناية لم يفعلها غيره من أهل بيته وأباح لهم عمل كل شيء أرادوه فاعتدوا على أموال الناس وأنفسهم مما كاد يؤدي الى الثورة ضده في القاهرة ، فاضطر الى بناء قلعة خاصة بمماليكه وبه ، بناها وسط جزيرة الروضة على بحر النيل ، ومن هنا عرف المماليك الأوائل باسم المماليك البحرية الصالحية (٧) .

ويرتبط وصول المماليك البحرية الى السلطة بتعرض مصر لهجوم قوات الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع (القديس لويس) ملك فرنسا ، وترتبط هذه الحملة بأهداف الصليبيين الأساسية في الاستيلاء على فلسطين واستعادة القدس المحررة ، ولكن لم توجهت ضد مصر ولم تقدم الى الأراضي المقدسة مباشرة ؟

لهذا تعليقات كثيرة ، ارتبط أهمها بالدور القيادي الذي شغلته مصر منذ أيام صلاح الدين الأيوبي كما يلاحظ أنه أذا كان تحرير القدس من قبل صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م هو الذي أثار الحملة الصليبية الثالثة فإن تحريرها ثانية (٨) من قبل الصالح نجم الدين سنة ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م هو الذي سبب قيام الحملة السابعة وقدمها الى مصر .

وهناك خلاف واضح بين وقائع هاتين الحملتين

ونتائجهما ، والذي يعنينا منهما هو ان نذكر انه نتج عن الحملة الثالثة ، فيما نتج ، استيلاء الصليبيين على مدينة عكا ومن ثم اعادة احياء مملكة القدس ، وغدت عكا عاصمة لهذه المملكة ، وبعد وفاة صلاح الدين وبسبب نشوب الخلافات الشديدة بين امراء الاسرة الايوبية وسع الفرنجة رقعة ممتلكاتهم وباتوا يتحكمون بجزء كبير من الساحل الشامي امتد من عسقلان في الجنوب الى مابعد طرابلس في الشمال مع مناطق في الداخل تمثلت ببلدة صفد والمنطقة القائمة بينها وبين عكا . وفي سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م تسلم الامبراطور فريديريك الثاني من الملك الكامل الايوبي القدس وبيت لحم والناصره . وكان هذا الحدث من محصلات الحملة الصليبية السادسة وتم نتيجة لحذكة الامبراطور السياسية ولم يرتكز على قوة السلاح .

وبعد تحرير القدس من قبل الصالح ايوب تحفز الغرب وأعد حملة جديدة هي السابعة ، وقاد هذه الحملة القديس لويس ، ووجهها ضد مصر ، مقدرًا انه اذا ماتمكن من قهر هذه البلاد سهل عليه استرداد فلسطين ، وفي حزيران - من عام ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م تمكنت الحملة الصليبية من احتلال دمياط ، وكان الملك الصالح مريضا ، وقد توفي في تلك الاثناء ، مما شجع الملك الفرنسي على اتخاذ قرار الزحف نحو القاهرة ، وأدى هذا الى إخفاق الغزاة ووقوع الملك وجيشه في الأسر في عام ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م (٩) .

قام بإدارة الأمور في تلك الأونة شجر الدر أرملة الصالح ايوب ، وتم استدعاء توران شاه بن الصالح ايوب ، لكن هذا السلطان الجديد أخفق في مهمته ، ومن ثم اغتيل من قبل قادة مماليك أبيه يوم ٧ محرم ٦٤٨ هـ / ٢ ايار - ١٢٥٠ م وبمقتله انتهى الحكم الايوبي لمصر وتأسست سلطنة المماليك (١٠) .

وتسلم السلطة اولا شجرة الدر ، ثم مالبيثت أن اختير لها عز الدين أيبك من أمراء المماليك زوجا ، ومن ثم سلطانا (١١) وفي مدة

سلطنتها التي دامت ثمانين يوما تم الاتفاق مع الملك الفرنسي ، فأطلق سراجه ، فتوجه نحو عكا حيث استقر بها مدة اربع سنوات (١٢) .

ونجم عن تسلّم المماليك للسلطة في مصر نتائج داخلية خطيرة وردات فعل خارجية شديدة ، فقد رفض الحكام الأيوبيون في الشام الاقرار بالوضع الجديد ، وحدثت صراعات دموية بين أمراء المماليك اضطرت عددا كبيرا منهم إلى ترك مصر والتوجه إلى الشام حيث نشطوا فيها كمرتزقة ، وحاول لويس التاسع استغلال الأوضاع المضطربة (١٣) .

تسلم الملك الفرنسي مسؤوليات الحكم في عكا ، وبات سيد ما عرف باسم مملكة القدس ، في الوقت الذي راسل فيه فرنسا وبلدان أوروبا لاثارة حملة صليبية جديدة ، ونشط محليا عن طريق استغلال الصراع الأيوبي المملوكي ، وتقوية دفاعات الممتلكات الصليبية ، وشهدت الفترة التي أقام خلالها الملك لويس ذروة أعمال التحصين الفرنجية في المشرق عامة وفي فلسطين خاصة ، وأنتجت نماذج من الحصون والقلاع تمتعت بقدرات دفاعية هائلة ، كما أن المدن وخاصة عكا عززت دفاعاتها وأسوارها . فقد ملكت المدينة سورا مضاعفا الآن ، تخفده مجموعة من الأبراج امتدت على طوله ، وزودت الأسوار والأبراج بوسائل لرمي الذنشاب وسواه ، ومنتت بوابات المدن والقلاع ، وحفرت الخنادق حول الأسوار ، كما جهزت المرافق بمنشآت دفاعية خاصة ، وزود مدخل ميناء عكا بعدد من الأبراج الدفاعية التي مدت بينها السلاسل (١٤) .

كانت عكا آنذاك مقامة على نشز من الأرض مثلث الشكل ، أطل ضلعان منه على البحر وقام الثالث على سهل يبلغ اتساعه قرابة ستة أميال في أوسع جهاته ، وكان هذا السهل عظيم الخصوبة فيه بساتين وكروم وحقول ومراع للمواشي (١٥) .

وجعل موقع عكا المتوسطي منها سوقا تجارية دولية ، كانت ترد

اليها البضائع من الشرق الاسلامي ومن الموصل ودمشق وحلب ومصر ، وكانت تقيم فيها جاليات تجارية اسلامية واخرى مثلت جمهوريات ايطاليا التجارية وخاصة البندقية وبيزا وجنوا (١٦) .

وبعدما استولى الماليك على السلطة في القاهرة انتهز الملك الناصر يوسف ، صاحب حلب وحفيد صلاح الدين الايوبي الفرصة ، فاستولى على دمشق ، فأصبح سيد معظم اجزاء بلاد الشام ، وقد عقد العزم على الزحف على القاهرة للاستيلاء عليها وإحياء ملك اله فيها (١٧) .

واعتقد الناصر ان عليه التحالف مع الملك لويس ، فراسله عارضا التعاون معه للانتقام من الماليك مقابل إعطائه مدينة القدس التي كانت تحت امرته ، وكان هذا العرض مغريا جدا ، فيه تحقيق للهدف الذي قدم الملك الفرنسي من أجله إلى الشرق وفيه انتقام للهزيمة وللعار الذي لحق به نتيجة أسره .

لكن من الذي كان يضمن النجاح في هذه المهمة ويضمن الوفاء بالعهد أيضا ، أضف إلى هذا ان ما ملكه لويس آنذاك من قوات عسكرية ضاربة كان قليل العدد والامكانيات ، وكان لا يزال في مصر ما يزيد على اثني عشر ألف أسير من جنده .

وعلم عز الدين أيبك بأنباء هذه العروض والاتصالات فبعث إلى الملك الفرنسي يتهدده بقتل الأسرى جميعا ، وعرض عليه في الوقت نفسه تعديل شروط معاهدة دمياط التي أطلق بموجبها سراحه وذلك بالتنازل له عن أموال الغدية المتبقية عليه .

ودرس لويس الموقف من مختلف الوجوه ، فوجد ان المنطق يفرض عليه البقاء على الحياد ، لذلك أرسل سفارة إلى الملك الناصر أعلمه فيها أنه طلب من أمراء مصر تعديل المعاهدة التي عقدها معهم والتعويض عليه وأنهم إذا ما رفضوا فسيقف إلى جانبه ، وتترك لويس بهذا الرد الباب مفتوحا لاتصالات مستقبلية مع

الناصر ، ووقف يرقب الصراع من حوله ويعد العدة للافادة منه (١٨)

وتبعاً لجوانفيل الذي أرخ لحياة لويس وكان بصحبته ، بعث الملك الفرنسي وفداً إلى مصر عرض على سلطاتها موقف لويس ومطالبه ، ونجح الوفد في مهمته وأطلق المماليك سراح مائتين من الفرسان الأسرى لديهم مع ما يقارب ألف مقاتل من أصحاب الرتب الأدنى ، وبعثوا برسلاً من عندهم للاجتماع مع الملك الفرنسي وبحث شروط تحالف معه . وزاد لويس من مطالبه واستجيب له واستمرت المفاوضات بين الطرفين ولم تنقطع .

وربح لويس وازداد حجم قواته العسكرية (١٩) ، وفقد الناصر يوسف الأمل في التحالف معه فقاد قواته يريد القاهرة ، وسارع أيبك إلى لقائه ، وأقدم قبل ذلك على هدم مدينة دمياط ، وفي ١٠ ذي القعدة ٦٢٨ هـ / شباط - ٢٥١ م التحمت القوات المملوكية بالقوات الأيوبية عند بلدة العباسية بين بلبيس والصالحية ، وانجلى القتال عن هزيمة الأيوبيين وتراجعهم نحو دمشق (٢٠) ، وقام أيبك بعد فترة وجيزة بإرسال وحدة من قواته استولت على غزة.

واغتمت الملك لويس انشغال المسلمين بصراعاتهم فتوجه نحو بلدة قيسارية فأعاد تحصينها . فاستؤنف أثناء ذلك المفاوضات بينه وبين أمراء المماليك وتمخضت عن إبرام معاهدة جديدة بينهما في ربيع الأول ٦٥٠ هـ / أيار ١٢٥٢ م ، وقد حدثنا عنها جوانفيل بقوله: « وبينما كان الملك يقوم بتحسين قيسارية عاد رسله من مصر جالبين معهم معاهدة أبرمت وفقاً للشروط التي وضعها جلالته وقضت المعاهدة بين الملك والأمراء بأن يتوجه إلى يافا في موعد محدد ، بينما يذهبون هم إلى غزة في اليوم نفسه ، وقد أقسموا على تسليمه مملكة القدس ، وأقسم الملك ورجالات جيشه على تنفيذ المعاهدة ، وكان معنى هذا أننا ارتبطنا بوعدهم بتقديم المساعدة للأمراء ضد سلطان دمشق.

وتنفيذاً لهذا الاتفاق تقدم الملك لويس نحو يافا فاحتلها ، وكان

أيك قد بعث بقواته لاحتلال غزة ، وعلم الناصر يوسف بأخبار هذا التحالف فبادر إلى إرسال قواته نحو غزة فاحتلها وعسكرت فيها وبذلك حالت دون قيام أي اتصال بين الفرنجة والمماليك . وخرجت قوات المماليك من القاهرة لكنها لم تتجرا على التقدم نحو غزة ، وبذلك أخفقت خطط المتحالفين وتجمد الوضع قرابة عامين . وتدخلت الخلافة العباسية بين الطرفين الشامي والمصري ، وأمكن في صفر ٦٥١ هـ / نيسان ١٢٥٣ م عقد صلح بينهما ، اعترف الناصر بموجبه بالحكم المملوكي في القاهرة وتنازل لهذا الحكم عن غزة والقدس ونابلس (٢٣) .

وكان الخاسر في هذه الجولة الملك لويس ، ثم إن المماليك لم يتمكنوا من استغلال ما منحهم الاتفاق من فرص حيث تورطوا في نزاع داخلي على السلطة أودى بحياة شجر الدر وعز الدين أيك وعدد من الأمراء الكبار ، ونشط الملك لويس قليلا ثم قام أخيرا في نيسان ١٢٥٤ م بمغادرة الأراضي المقدسة وذلك بعدما يؤسر من وصول حملة جديدة من أوربا ، وبعدها بلغه وفاة والدته في فرنسا ، وهي التي كانت تتولى إدارة الأمور في غيابه (٢٤) .

قد يرى بعض الباحثين أن ما حدث حتى الآن قد مهد السبيل أمام المماليك للسيطرة على بلاد الشام وفي مقدمتها فلسطين ، وقبل معالجة هذا الرأي لا بد من سؤال هو : هل كانت السلطات المملوكية ترغب بالاستيلاء على فلسطين ومجمل بلاد الشام ؟ ليس هنالك ما يفيد بالإيجاب في كل ما حوته مصادرنا من معلومات . هذا ولا يجوز لنا أن نذهب إلى الافتراض أن المماليك كانوا لا بد وأن يسيروا على هدي حكام مصر المستقلة السالفين في سياستهم الخارجية تجاه بلاد الشام . وسبب هذا أننا لا يمكن أن نتحدث عن وجود سياسة خارجية مرسومة لدى المماليك ، بل كان هنالك ردات فعل تجاه الوقائع والأحداث ، ثم إن المماليك لم يعرفوا الحكم المستقر ولم تتوفر لديهم البيروقراطية المستقرة ، بل كان هنالك انقلابات مستمرة وحركات عصيان متواصلة ومؤامرات دائمة . أضف إلى

هذا ان امراء المماليك ورجالاتهم لم يتحرروا من عقدة الرق ، وكان
حكام الشام يملكون الاعتراف الشرعي (٢٥) .

ودخلت بلاد الشام في ظل الحكم المملوكي بفضل أحداث غزو
خارجي ، وهو الغزو المغولي ، ولهذا الغزو ولصده علاقة مباشرة
ببلاد الشام ، وقبل ان ندخل بتفاصيله من المفيد ان نذكر ان الحكم
المملوكي قد مر بطورين ، عرف الاول منهما بالطور التركي والثاني
بالطور الشركسي ، وقد ارتبطت بداية كل طور منهما بغزو مغولي
كبير .

ليس المقام هنا الحديث عن المغول وتأسيس
امبراطوريتهم (٢٦) ، ويهمننا ان نذكر انه عندما وصلت اخبار ظهور
جنكيزخان إلى أوروبا ظننته مسيحيا وخيل إليها انه المخلص القادم
من المشرق ، ولهذا جرت اتصالات بين المغول ومختلف قوى أوروبا
ومحاولات للتحالف . وتطلع الفرنجة في الشام بأمال عظيمة إلى
اخبار الحملات المغولية ضد بلدان العالم الإسلامي في
المشرق . وعندما زحف هولاكو حفيد جنكيزخان نحو بغداد رأوا
فيه - مع انه كان بونيا كما هو المرجح - « داود الهندي » الذي
سيتمكن من استرداد القدس من المسلمين وبناء أسوارها « بحجارة
من ذهب وفضة » .

في سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م استولى هولاكو على بغداد وأزال
الخلافة العباسية من الوجود ، ووجه ضربة قاتلة إلى الحضارة
العربية وإلى تراثها المجيد ، ولهذا خيل للمسلمين « ان العالم على
وشك الانحلال وان الساعة آتية عن قريب » . وتابع المغول زحفهم
نحو بلاد الشام فاستولوا على حلب في صفر ٢٥٨ هـ / كانون
الثاني - ١٢٦٠ م ، ثم قصدوا دمشق وكانت قد اجتمعت فيها قوة
كبيرة للناصر يوسف صاحبها ، ومع ذلك عجز هذا الامير الأيوبي
عن الصمود وتراجع نحو غزة وعسكر فيها ، واستولى المغول على
دمشق في ربيع الاول ٦٥٨ هـ / آذار - ١٢٦٠ م ، واخذوا يعدون
العدة للزحف نحو مصر .

وكان تسلم السلطنة في القاهرة الأمير قطز ، وهو مملوك قيل إنه من أصل خوارزمي وأنه يمت بصلة القرابة لأسرتها الحاكمة التي حاولت التصدي للمغول . فتراسل قطز مع الناصر يوسف ، والأهم من ذلك أنه وجد الفرصة لاعادة توحيد قوى المماليك جميعها وذلك بعدما انضم إليه بيبرس البندقداري قادما من الشام .

ولم يطل مكوث الناصر في غزة ، فقد تخلت عنه عساكره فعاد نحو الشام ، فألقى المغول القبض عليه وحملوه إلى هولوكو الذي اجتفظ به ووعدته بإعادة ملك أبائه إليه ، وبالفعل انضم عدد من بقايا الأيوبيين إلى المغول .

لقد ملك المغول طاقات قتالية هائلة ، وتأثرت طرائقهم بالقتال وأسلحتهم بطرائق الصين وأسلحتها . وكانت خبرة المسلمين إزاء هذه الطرائق شبه معدومة ، هذا ، وكان المغول قد احتلوا في تلك الأونة روسيا ، وقام أمراء المغول هناك وهم من « القبيلة الذهبية » باعتراف الإسلام ، ولهذا عارض زعيمها « بركة خان » أعمال هولوكو ودخوله بغداد وقامت اتصالات بين المماليك والقبيلة الذهبية الي حد أن بعض الروايات تذهب إلى القول إن مساعدات رمزية كانت وصلت منها إلى مصر واشتركت في الحرب ضد مغول هولوكو ، وإذا صح هذا فإن معناه حصول المماليك على بعض المعلومات العسكرية عن فنون القتال لدى المغول .

ويلاحظ أن الجيش المملوكي وإن لم يكن عظيم الحجم كان جيشا محترفا بكل ما تعنيه هذه الكلمة سواء من حيث التسليح أو التدريب والمقدرة السوقية والبراعة في المناورة والتكتيك الحربي . لقد كان الجيش المملوكي أفضل جيش مدرب في عالم عصره ، لهذا عندما توحدت قطعاته لم يكن غريبا أن يهزم جيوش المغول التي قهرت العالم اجمع ولم تذق طعم الهزيمة من قبل .

وقرر هولوكو عدم الاكتفاء بدمشق ، وأن تتابع قواته فتحلأ أولا القدس ثم تتابع سيرها نحو مصر ، ويشار هنا أنه فضلا عن

الصلات المغولية مع الصليبيين والاوروبيين ، كانت نساء بلاط هولاكو البارزات مسيحيات حسب العقيدة الذسطورية وكان لهن مكانتهن ونفوذهن العظيم عليه .

وبعث هولاكو برسالة قاسية إلى قطز تهدده فيها وتوعده ، ورد قطز عليه بقتل رسله وإعلان تصميمه على لقاء المغول . وواجه في هذا السبيل بعض المصاعب الداخلية ، لكنه استطاع أن يذللها وحشد قواته وبعث طلائعه نحو غزة بقيادة بيبرس البندقداري ، واصطدم بيبرس بطلائع المغول عند غزة فناوشها وهزمها واشتبك مع قوى المغول المتقدمة لمدة أيام وكان لهذه الاشتباكات أهمية عالية جدا فقد أفادت من الجانب المعنوي ، وكانت بمثابة استطلاع قتالي مباشر واختبار لقدرات العدو وخطته من جميع الجوانب ، زد على هذا أنها موهت عليه وقدمت تغطية كاملة لتحركات قطعات الجيش الرئيسية بقيادة قطز ، فقد سلكت هذه القطعات الطريق الساحلي ، وعرجت أولا على عكا لاستطلاع موقف الفرنجة فيها .

وكان الفرنجة انذاك يعيشون في أوضاع محرجة ، الخلافات الداخلية على أشدها بين طوائفهم ومنظماتهم ، وكانوا يدركون أنه ليس بإمكانهم القيام بدور فعال ، لذلك أخبروا المماليك بوقوفهم على الحياد .

وفي هذه الأثناء اضطر هولاكو إلى مغادرة بلاد الشام والعودة نحو العراق ومن ثم إلى خراسان ، حيث بلغه وفاة خان المغول وكان يطمح في أن يجري اختياره خليفة له.

ولم يضعف زهابه قوة المغول ، وقد ناب عنه القائد كتبغانوين ، وزحفت قوات المغول وكانت تزيد على الثلاثين ألف فارس وعندما وصلت إلى نهر الأردن قام بعض المسلمين الموجودين معها بإرسال رسل إلى المماليك بالمعلومات والتشجيع والوعد بالتخلي عن المغول أثناء القتال ، فقد تحدث صامم الدين

ازبك ، وكان مملوكا ابوبيا قد دخل في خدمة هولاكو قال :
« لما قدمت الشام ، وجدت التتار مجتمعين على نهر
الأردن ، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية ، وقد خرج المسلمون
للقائهم ، فلما علمت أن التتار لا بد لهم من الديار المصرية بعثت
غلاما لي في صفة جاسوس ، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز
والأمير بيبرس البندقداري ، وبلبان الرشيدي ، وسنقر
الرومي ، ويعرفهم أن التتار لا شيء فلا تخافوا منهم ، وأن تكون
ميسرة المسلمين قوية بالخيول والرجال... وأوصيته أن يراعي
المسلمون أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس » .

وقام المماليك باستطلاع الأرض وقرروا أن يكون اللقاء في منطقة
عين جالوت بين بيسان ونابلس ، بين نهري جلبوع وجالوت
مستفيدين من المستنقعات التي كانت موجودة على الجانبين .

اعتمدت خطط المسلمين فيما سبق في حروبهم ضد الفرنجة على
نظام فصل أسلحة العدو عن بعضها والإيقاع بكل منها على
أفراد ، لكن الوضع كان مختلفا الآن . فقد كان المغول من الفرسان
الخفاف ، سلاحهم الرئيسي القوس والذشاب - حسب عادات بداءة
سهوب أواسط آسيا - يقاتلون عن بعد ويضر بهم الالتحام والقتال
القريب ، وقد اعتادوا فقط على الهجمات السريعة والقتال
الخاطف . ولهذا قامت خطة المماليك على اعتماد مبدأ الدفاع
المتحرك ، واستهدفوا احتواء الهجوم المغولي وتدميره .

ولهذا صفوا قواتهم التي لعلها لم تتجاوز الثلاثين الفا بصفوف
طويلة واجبروا المغول على الهجوم الجبهوي بعد اشتباكات دامت
عدة أيام ، وفي يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / ٦ أيلول - ١٢٦٠ م
أمكن احتواء الهجوم المغولي ، وتطويق المهاجمين وتدميرهم ، فقد
حرى قتل كتبغا نوين وعدد كبير من قادة المغول وجرت أعمال
مطارية كاملة (٢٧) .

وقبل الحديث عن نتائج هذه المعركة الكبرى لابد من الاشارة الى انه يستفاد مما اورده المقرئزي عن اخبار المعركة أن « أهل القرى من الفلاحين » (٢٨) الفلاسطينيين قد شاركوا بشكل فعال ومؤثر في القتال وان اعدادهم كانت كبيرة ، ويضفي هذا على المعركة صبغة خاصة ، ذلك ان الظهير الشعبي حاسم في جميع المعارك .

لقد كانت معركة عين جالوت نقطة تحول عظمى في التاريخ ، اذ انها اوقفت المد المغولي وحولته الى جزر ، وبرهنت ان الاحتراف العسكري المدعوم شعبيا والمستند على الايمان والمتحلي بالعبقرية يمكنه ان يهزم اية قوة مهما بلغ جبروتها . وحفظ نصر عين جالوت مصر وسان الشمال الافريقي وضمن تحرير بلاد الشام وطرد المغول الى ماوراء نهر الفرات ، وهيا الفرصة للعمل على تصفية الوجود الصليبي في المشرق .

لقد منح هذا النصر القاهرة مكانة الزعامة السياسية ومركز الاشعاع الفكري خاصة بعد دمار بغداد وهجرة العلماء ونوي الاختصاص والحرفيين وسواهم من المشرق الى مصر .

لقد ربح المماليك الشام كلها ، ذلك ان المغول كانوا قد ازالوا الحكم الايوبي ، وهكذا امتد الحكم المملوكي الى الشام بدون معارضة ، وليس من الغلو القول ان دولة المماليك قد ارسيت قواعدها نتيجة للنصر في عين جالوت ، ويعتبر بيبرس البندقداري هو الذي تولى بناء هيكل هذه الدولة ، فقد قام بيبرس بعد انقضاء معركة عين جالوت بفترة وجيزة باغتيال السلطان قطز واحل نفسه محله بلقب الظاهر .

واجمل المؤرخ البعلبكي موسى بن محمد اليونيني ماشهدته بلاد الشام سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م بقوله :
« في هذه السنة كثر تغير الدول ومتولي الحكم بالشام ، فكان من اول السنة الى نصف صفر في مملكة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، وهو آخر من ملك من بني ايوب رحمهم الله

وايانا ، ثم صار في مملكة التتار الى الخامس والعشرين من شهر رمضان المعظم ، ثم صار في مملكة المظفر سيف الدين قطز صاحب الديار المصرية الى ان قتل في ذي القعدة ثم صار في مملكة الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري « (٢٩) » .

وحافظ المماليك على الاوضاع السياسية الموروثة في بلاد الشام ، ذلك انهم لم تكن لديهم سياسة خارجية مصرية مرسومة تجاه بلاد الشام ، بل كانت دولتهم تشبه اتحاد اقطاعات عسكرية متفاوتة الاحجام ، ويمكن ان ندرك هذا مما قاله اليونيني في وصفه لاحداث سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٣ م « دخلت هذه السنة وليس للناس خليفة ، وسلطان الديار المصرية والشامية والحلبية الى الفرات ، الملك الظاهر ركن الدين بيبرس » ثم اردف واصفا احداث السنة التالية ٦٦٢ هـ - ١٢٦٤ م ، وكان الملك الظاهر قد استولى على الكرك وازال الحكم الايوبي منها واسس خلافة عباسية جديدة ، بقوله :

« دخلت هذه السنة وخليفة المسلمين الامام الحاكم بأمر الله ابو العباس احمد العباسي امير المؤمنين ، وسلطان مصر والكرك والشام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس » (٣٠) :

والمفحص لاوضاع سلطنة المماليك ايام بيبرس يلاحظ ان هذه السلطنة العسكرية كانت لها ثلاث جبهات رئيسية : واحدة في مصر ، واخرى في دمشق ، وثالثة في حلب . فقد تعرضت مصر للغزو الصليبي برا وبحرا ، وارتبط استيلاء المماليك على السلطة مع وقائع الحملة الصليبية السابعة ، اما دمشق فقد كانت جبهة مواجهة مع بقايا الصليبيين في الشام ، واهم من ذلك مواجهة الخطر المغولي القادم من الشرق ، اما حلب فقد واجهت دولة ارمينية الصغرى (سيس) والخطر المغولي .

لقد اقتضى اشتداد الخطر المغولي ان تتفرغ دمشق للتصدي له ، ودفع هذا السلطان بيبرس الى ايجاد قوة اسلامية تتمكن من

رصد فرنجة عكا والتصدي لهم ، وهكذا اقتضى الحال تحرير صفد واقامة نيابة مملوكية فيها .

ومنتبغ اخبار الممالك يجد ان حكمهم لم يعرف الاستقرار ولا ديمومة الولاء والخلاص ، بل ساد الصراع ، وقد نافس حكام الشام سلاطين القاهرة وسعوا الى الاستقلال عنهم او احتلال مناصبهم وتميز تاريخ الممالك بتحالف رجالهم مع رجال الدين الاسلامي ، واهتم الممالك اهتماما كبيرا باظهار شدة تمسكهم بالاسلام واحترامهم للاماكن المقدسة واكثرهم من بناء المساجد ومدارس الدين والزوايا.

ويتصدر السلطان الظاهر بيبرس قائمة اسماء سلاطين الممالك الذين تولوا اعمال التحرير . وبيبرس كما هو معروف هو الذي ارسى قواعد السلطنة المملوكية ونظم شؤونها جميعا ، وقد اعتلى العرش اثر معركة عين جالوت ، وكان ذلك بعد اغتياله لقطز ، وفعل الظاهر بيبرس ما فعله معتمدا على نفسه ، وبلغ غرضه بمفرده ، وذلك بين العساكر العظيمة والاحتراز الشديد ، وما قدر احد ان يتكلم ، ولا جسر ان يمد يده اليه .

وتسلم بيبرس السلطة في القاهرة ، وواجه في البداية عددا من الثورات واعمال المعارضة في القاهرة ودمشق . واستطاع بسرعة وحزم ان يقضي عليها جميعا ، فالتفت الى الجوانب التنظيمية والادارية ، ولعل اهم ما قام به في هذا المجال هو بعث الخلافة العباسية واعادة تأسيسها في القاهرة (٣١) .

كان الحكم المملوكي الجديد بحاجة الى الشرعية ومثل هذه الشرعية كان بإمكان الخلفاء وحدهم منحها . ونحن وان كنا لانجد المكان مناسباً للحديث عن تطور السلطة لدى العباسيين ، الا انه من المفيد ان نبين ان الظاهر بيبرس قد تمسك بمفهوم السلطة الموروث عن السلطنة السلجوقية ، فقد كان مثل السلجوقية ، من اصل تركي .

وكان السلاجقة بعدما استولوا على بغداد واقاموا دولتهم العظمى قد احدثوا تغييراً في مفهوم السلطة ، فهم لم يتحكموا بالخلفاء العباسيين كما فعل رجال بني بويه قبلهم بل اعتمدوا مبدأ ازدواجية السلطة ، وهو مبدأ تركي متوارث ، وتبعاً لهذا المفهوم كان يتولى رئاسة الدولة رجل عرف باسم الخاقان لايمك اية صلاحيات بل كانت رئاسته اسمية ، والى جانبه يتولى مباشرة السلطة ال « بك » وغالبا ماكانت وظيفته عسكرية . ويلاحظ بالنسبة لتاريخ سلاطين السلاجقة والماليك ان السمة العسكرية قد غلبت عليهم .

كما يلاحظ انه في زمن السلاجقة جرى توسيع قواعد نظام الاقطاع العسكري . ونتيجة لسياستهم الدينية عظم شأن علماء الدين السنة ودورهم الى حد يمكننا فيه الحديث عن قيام اقطاع ديني تحالف وتعاون مع الاقطاع العسكري . وكان لرجال الدين دور خطير جدا في ايام الحكم المملوكي وغالبا ماقاموا بالوساطة بين الماليك وطوائف المجتمع على اختلافها (٣٢) .

توجه السلطان الظاهر بيبرس نحو دمشق في العام التالي لتولية السلطنة ٦٥٩ هـ - ١٢٦١ م ، ويبدو انه سلك الطريق الساحلي مستطاعا اوضاع المنطقة الساحلية وضاعطا على الصليبيين هناك ، وفي طريقه جاءه كونت يافا فأكرمه السلطان وكتب له منشورا ببلاده ، ورده سالما الى مدينته . وفي دمشق « حضر رسول من جهة عكا يسأله امانا للرسل المتوجهين من البيوت (الداوية والاسبتارية) كلها فكتب الى والي بانياس بتمكينهم ، فحضر اكابر الفرنج والتمسوا الصلح ، فوقف السلطان عليهم ، وطلب منهم امورا كثيرة ، فلما امتنعوا زجرهم السلطان واهانهم » . ثم تقرر الهدنة مع تبادل الاسرى ورفع المقاطعة الاقتصادية (٣٣) .

ويلاحظ في هذا المقام ان مؤسسات الفرنجة السياسية والعسكرية في الشام تصرفت في بداية العصر المملوكي وكأنها جزء من المنظومة السياسية الشامية المحلية ، وان بيبرس شعر ان

المخاطر العظيمة على سيطرته على بلاد الشام ليست صادرة عن الفرنجة بل عن امارة الكرك ، التي ماتزال تحت الحكم الايوبي ، ومازال حاكمها يطمع بسلطنة القاهرة . ولهذا اتخذ الظاهر بيبرس قراره بالاستيلاء على الكرك ، وكان يحتاج حتى يتمكن من انجاز هذا العمل حماية ظهره من مخاطر المغول ، ولهذا جهز حملة عسكرية بعثها نحو العراق تحت لواء احد الناجين العباسيين وبايعه بيبرس بالخلافة وقد حمل لقب المستنصر بالله وقيل ان اسمه « ابو القاسم احمد بن الامام الظاهر » (٣٤) .

وماان فرغ بيبرس من هذه الاعمال حتى بادر بالعمل ضد امارة الكرك فاستولى اولا في هذه السنة نفسها ٦٥٩ هـ - ١٢٦١ م على قلعة الشوبك ثم شرع يتدبر امور الكرك وكانت من امنع القلاع في بلاد الشام ، فتمكن ببراعة مطلقة من الاستيلاء عليها في سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٣ م (٣٥) وبذلك ازال الوجود الايوبي من جنوبي بلاد الشام ، وبات من الممكن التفرغ للعمل ضد الصليبيين .

وادام السلطان اثناء عمله ضد الكرك الاتصالات الدبلوماسية مع الصليبيين :

« ولم تزل رسلهم في هذا ومثله إلى فرغ السلطان من شغله الذي كان في نفسه ، وهو حديث الكرك » .

وما إن انتهى منه حتى زحف على رأس جيوشه الى قلب الأراضي والممتلكات الصليبية ، واستقبل اثناء ذلك رسل مؤسسات الفرنجة الذين عرضوا عليه التمسك باتفاقات الهدنة فرفض ، وبعدما بين لهم الاحوال التي لم يتمسكوا بها بشروط الهدنة اوضح لهم عن مقاصده وشروطه بقوله :

« انتم في ايام الصالح اسماعيل اخذتم صمد والشقيف على انكم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح (ايوب) ... وبالجمله فانتم اخذتم هذه البلاد من الصالح اسماعيل لاعانة مملكة الشام وغيرها لي ، وما انا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتكم ، فتردون

ما أخذتم للإسلام بهذا الطريق ، وتفكون أسرى المسلمين جميعهم ، وغير ذلك لأقبله» (٣٦) ، ثم أمر بطرد الرسل ورسم بهدم كنيسة الناصرة ، « وهي أكبر مواطن العبادة التي لهم ، ويقولون منها خر دين النصرانية.. (ووجه من) هدمها الى الأرض ، فلم يجسر أحد من سائر الفرنجة أن يخرج من باب عكا» (٣٧) .

وسبب ذلك أنه أرسل قطعة كبيرة من جنده للاغارة على عكا ، ثم أتبع ببيرس ذلك بقيامه في يوم ٤ جمادى الآخرة ٦٦١ هـ / ١٥ نيسان ١٢٦٣ م بالزحف ضد عكا ، « ولم يزل سائقا الى أن طاف بها من جهة البحر ، وسير جماعة الى برج كان قريبا منها فيه جماعة فحاصره ، وللوقت أحدثت فيه النقوب ، وكان توجه السلطان اليها في هذه الجماعة إنما هو لكشفها » ، وكان الفرنج « قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معائر في الطريق ، وبسرعة متناهية تمكن جند ببيرس من ردم الخنادق وطلع الناس الى تل الفضول ، وانهزمت الفرنج الى المدينة ، وحرق الناس ما حول عكا من الأبراج والاسوار وقطعوا الأشجار وحرقوا الثمار » ، وحاول ببيرس اقتحام المدينة فأخفق ، وبعد قيام جيشه بعده هجمات أمره بالانسحاب ، حيث توجه نحو الكرك ومن هنالك عاد الى القاهرة (٣٨) .

ويبدو أن أهداف ببيرس في حملته هذه كانت أكبر من ايقاع الضرر بالفرنجة أو استعراض قواه أمامهم وفرض هيبة عليهم ، ولا حتى مجرد الاستطلاع والتعرف على طبيعة المنطقة . لقد أراد ببيرس احتلال عكا ، مقدرا إمكانية ذلك ، بسبب أوضاع عكا الداخلية ، فقد كان الفرنجة قد وصلوا في هذه الفترة الى درجة كبيرة من الضعف ونجم ذلك عن القتال بين البنادقة والجنوبيين فيها (٣٩) .

ووصلت الأخبار في عام ٦٦٢ هـ - ١٢٦٤ م عن تحرك مغولي ضد بلاد الشام لذلك أصدر السلطان ببيرس تعليماته باستنفار

القوات في الشام ، وشحن القلاع ورممها . وتحرك السلطان على رأس قواته من مصر فقصده غزة ومن هناك تحرك نحو منطقة يافا ، وبينما هو على الطريق وصلته الأخبار بهجوم المغول على المناطق الشمالية من الشام ، وصد ذلك الهجوم ، ولذلك بادر الى تغيير خطط زحفه واستغلال الموقف في البقاع التي كان فيها .

وبناء عليه « ثنى اعنته الى جهة الفرنج ليدينهم كما دانوا ويكون لهم كما كانوا ، وما علم أحد مغزاه ، ولا فهم أين مرامه ومرماه » ، وتظاهر بالانشغال بأعمال الصيد في غابة أرسوف ، فقام باستطلاع أرسوف وقيسارية ، وأمر بإحضار الأخشاب واعداد المجانيق وأسلحة الحصار ، وأحضر الصناعات والحجارين (سلاح المهندسين) ، وهاجم قيسارية ، و« نزل عليها يوم الخميس في التاسع من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وستمائة (٢٨ شباط ١٢٦٥ م) ولوقته طاف بها . وهاجمها الناس . والقوا نفوسهم في خنادقها وعمدوا الى السكك الحديد التي للخيل والشبح والمقاود فتعلقوا فيها وطلعوا من كل جانب ، ونصبت عليها السناجق وحرقت أبوابها وهتك حجابها ، فهرب أهلها الى قلعتها ..»

وشرعت القوات المملوكية بحصار قلعة قيسارية ، وكانت « من أحسن القلاع وأحسنها ، وتعرف بالخضراء ، وكان الريدافرانس (لويس التاسع) حمل اليها العمدة الصوان وأتقنها ، ومارؤي في الساحل أحسن منها عمارة ولا أمنع ولا أرفع لأن البحر المالح حاف بها ، وجائز في خنادقها ، والنقوب لا تعمل فيها للعمد الصوان الصلبة في بنائها » وشدد بيبرس الحصار عليها وضيقت الخناق على المدافعين عنها ، وبعد مضي أسبوع هرب الفرنج بحسرا الى يافا ، « واسلموا القلعة بما فيها ، وتسلق المسلمون اليها من الأسوار ، وحرقوا الأبواب ، ودخلوها من أعلاها وأسفلها » وأمر بيبرس على الفور بهدم قيسارية مع قلعتها « ووقف يهدم

بنفسه ، وراه الناس فتشبهوا به ، وعملوا بنفوسهم ، وصار
يباشر ذلك بنفسه ويده « (٤٠) .

لقد برهن بيبرس في جميع معاركه على أنه صاحب عبقرية
عسكرية متميزة ، فعندما قرر مهاجمة قيسارية أرسل بعض وحدات
جيشه نحو عكا للاغارة عليها ، والحيلولة بين أهلها وبين إنجاد
قيسارية ، وجاء تحرير قيسارية بمثابة ضربة قاسية ضد
الفرنجة ، حيث خسروا أهم نقاط الدفاع المتقدمة لديهم .

إن الهجوم على قيسارية يدل على وجود خطة محكمة للتحرير قد
وضعها بيبرس . فقيسارية كانت أهم مواقع الصليبيين وأحصنها
على الساحل فيما بين عكا وغزة ، وبعدما نجحت خطة الاستيلاء
على قيسارية عمد بيبرس الى اجراء عسكري له شقان : الشق
الأول تصفية الممتلكات الصليبية فيما بين قيسارية وغزة ، والشق
الثاني التقدم في الوقت نفسه خطوة أخرى باتجاه عكا . فبينما كانت
عمليات الهدم مستمرة في قيسارية أرسل بيبرس في ٢٦ جمادى
الأولى ٦٦٣ هـ / ١٧١ م مجموعة كبيرة من عساكره
نحو حيفا « فساروا اليها ودخلوا قلعتها ، فنجا الفرنج بأنفسهم
الى المراكب بعد ان قتل منهم وأسر ... وأخربوا المدينة وقلعتها
وأحرقوا أبوابها ، وجعلوها خاوية على عروشها ، كأن لم تغن
بالأمر ، وكان أخذها وما اعتمد فيها من قتل وأسر وإخراب
وإحراق في يوم واحد .»

وفي الوقت الذي تعرضت فيه حيفا للغارة المدمرة المحزنة سار
السلطان الظاهر بيبرس بنفسه على رأس قطعة كبيرة أخرى من
جيشه الى عتليت . وبعدما استطلعها أمر عساكره بالاغارة عليها
« وأمر بتشيعيتها وقطع أشجارها ، فقطعت جميعها وخربت
أبنيتها » ثم عاد نحو قيسارية لمتابعة أعمال الهدم وإعداد خطة
هجوم جديد .

وكان الهدف الآن هو بلدة أرسوف ، وبعدها أعد بيبرس الأسلحة الجماعية ومعدات الحصار ، القى الحصار على أرسوف وشدده وكانت أسوارها متينة وعالية ، وقامت قوات بيبرس بالتقدم نحو الأسوار في ظل ستائر من الأخشاب على شكل أبراج متحركة ، وحاولت هذه القوات حفر نفقين تحت الأسوار بغية شحنها بالأخشاب وإحراقها تحت طرف من أطراف الأسوار بغية هدمه ، وقام الفرنجة بخطط معاكسة وذلك بحفر أنفاق مضادة ونشر الدخان فيها بشكل مفاجيء .

وبعد حصار دام أربعين يوما لم يتوقف القصف والرمي فيها أمكن فتح ثغرات واسعة في الأسوار ، وهكذا تمكن الجند من اقتحام المدينة والدخول الى حصنها . وهنا توقف المدافعون عن القتال والقوا أسلحتهم واستسلموا ، وحررت أرسوف وعادت الى أهلها يوم الخميس ١١ رجب ٦٦٣ هـ / ٢٦ نيسان ١٢٦٥ م . وأمر بيبرس بهدم أرسوف ثم وجه انذارا الى كونت يافا جاء فيه :

« إننا لا نحتمل الهزيمة ، وإذا أخذ أحد لنا مزرعة أخذنا عوضها قلعة مرتفعة ، وإذا هدموا جدارا هدمنا أسوارا ، والسيف في يد الضارب ، والجواد عنانه في قبضة الراكب ، ولنا يد تقطع الأعناق ، ويد تصل الأرزاق ، ومن تحرش فعن تجربة ، ومن أراد شيئا من الأشياء فهذه الأمور له مرتبة . »

لا شك ان إنجازات أعمال التحرير لهذا العام كانت جلية ومحصلاتها عظيمة لا سيما في بناء قلعة قاقون . وقبل تعليل أسباب هدم الحصون المستولى عليها والباعث على بناء قاقون ، من الضروري الإشارة الى أن أعمال التحرير هذه لم يتوقف إنجازها على العسكريين المحترفين من جند بيبرس ، فلقد كان الحضور الشعبي كبيرا ، أثناء القتال وأعمال الحصار ، وشارك العرب الفلسطينيون مع إخوانهم من أهل الشام نساء ورجالا ، وكان لهم

دورهم المميز ، ويحدثنا ابن عبدالظاهر قاضي بيبرس ورئيس ديوان الانشاء لديه وكاتب سيرته وهو شاهد عيان بقوله :

« وحضر العباد والزهاد والفقهاء والفقراء الى هذه الغزاة المباركة التي ملأت الأرض بالعساكر وأصناف العالم ، ولم يتبعها خمر ولا شيء من الفواحش بل النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال ، ويجرون في المجانيق ، وأطلق لجماعة من الصالحين الرواتب ، مثل الشيخ علي المجنون ، والشيخ إلياس ، ومن الأغنام والحوائج ، وأطلق للشيخ علي البكاء جملة من المال ، وما سمع أن أحدا من خواصه اشتغل عن الجهاد في نوبته بشغله ، ولا سير أمير غلمانه في نوبته واستراح هو ، إلا الناس سواء في هذه الأمور .»

وكان الشيخ علي المجنون أول الناس لدى اقتحام الاسوار ، فهو أول من شاهد انهيار اسوار باشمورة أرسوف ، والحضور الشعبي له دلالات كبيرة . فالمعركة كانت لها صبغة « قومية - وطنية » ، إذا جاز لنا استعمال التعابير الحديثة ، ولم تكن صراعا بين حكام أو عسكريين ، بعضهم من الفرنجة وبعضهم الآخر من الترك . لقد اعتبر بيبرس أعماله جهادا في سبيل الله ، واعتبر الشاميون الفلسطينيون عملهم جهادا في سبيل الله والأرض ، ولهذا كان التعب يعتري جند المماليك لكنهم لم يعرفوا للتعب معنى ولم يتوقفوا الا بعدمالقى العدو السلاح واستسلم(٤١)

ولجأ بيبرس الى هدم المدن والحصون الساحلية التي استولى عليها حتى لا يعود الفرنجة اليها فيرمموها ويتحصنوا بها من جديد ، ذلك أنه كان لهم تفوق بحري على المماليك وكانت تحت تصرفهم اساطيل الدويلات الايطالية من اساطيل دول أوروبا المتوسطة (مثل فرنسا وصقلية وإسبانيا) .

لقد قدر بيبرس - كما يبدو - أن الاستيلاء على عكا ليس بالامر

السهل ويحتاج الى مجهود كبير ووقت طويل ، وأن هناك مسائل ومخاطر ملحة أخرى في المناطق المحتلة من قبل الصليبيين خارج فلسطين ، فقد كانت هناك طرابلس ، وقلعة حصن الأكراد وأنطاكية ، لذلك تابع العمل على تجريد عكا من ممتلكاتها وأخذ يعد العدة لتحرير صنف ، وأقدم أولا على إعادة تحصين قلعة قاقون .

كانت قاقون تعد من أعمال قيسارية ، وقد سكن قلعتها فرسان المعبد (الداوية) وقد ورد ذكرها في عمليات الحروب الصليبية . وهي وإن كانت قلعة داخلية لم تكن بعيدة عن الساحل ، لذلك توفرت فيها الشروط المطلوبة ، وأمر بيبرس بإعادة بناء قلعتها ، ورمم كنيسيتها وحولها الى جامع ، وأوقف عليها الأوقاف وشحنها بالمقاتلة وانتهت هذه الأعمال سنة ٦٦٥ هـ - ١٢٦٧ م ونمت قاقون خلال فترة وجيزة فصارت عامرة بالناس وغدت محطة للقوافل الذاهبة الى غزة والأيبة منها ومركزا من أهم مراكز البريد ، ذلك أن بيبرس اعتنى عناية فائقة بالبريد حتى كان الخبر يحتاج الى أربعة أيام للوصول من دمشق الى القاهرة (٤٢) .

وبعد انقضاء موسم أمطار عام ٦٦٤ هـ - ١٢٦٦ م جهز السلطان الظاهر بيبرس قواته وأخذ الطريق نحو غزة يريد بلاد الشام ، وفي غزة كلف بعض أمراء جيشه بقيادة وحداتهم والاغارة على ممتلكات الفرنجة في الساحل ما بين طرابلس وصور ، ومن غزة توجه بيبرس شخصيا نحو مدينة الخليل « فدخل الى مقام ابراهيم وزار وكشف المظالم » واتخذ عدة إجراءات لصيانة حرمة المكان ثم توجه نحو القدس فأتى « الحرم الشريف مستخفيا في نفرين أو ثلاثة ، وصلى الجمعة بالقدس ، ورحل الى عين جالوت نحو عكا وعسكر امامها وأمر باجتماع قواته اليه » .

وعاد ثانية فضغط على عكا وأغارت قواته على المناطق المحيطة بها ، بغية إضعافها اقتصاديا وعسكريا ، وراسله مقدم الاستبارية

من عكا من أجل الهدنة وفق الشروط التي يفرضها ، وعندما تهيأت
الاجواء توجه بيبيرس نحو صفد فهي قد كانت هدفه « لأنها الغصة في
حلق الشام ، والشجا في صدر الاسلام » (٤٣) .

وقبل البحث في أحداث تحرير صفد نحتاج الى وقفة قصيرة بغية
التعرف الى موقع هذه البلدة مع شيء من تاريخها الاسلامي :

تقع صفد في الجليل الاعلى ، وترتفع حوالي ٨٤٠ م عن سطح
البحر وتبعد نحو ٢٠٦ كم عن القدس ، وهي ذات موقع
استراتيجي هام « كانت أولا تلا ، وكان على التل قرية عامرة تحت
برج اليتيم... لم تذكر في شيء من الكتب الموضوعية في التاريخ في صدر
الاسلام » وقد سقطت بيد الصليبيين في الحملة الاولى فعمروا قلعتها
سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م وسكنها فيما بعد سنة ١١٦٧ م فرسان
المعبد (الداوية) وحصنوها وظلت في ايدي الصليبيين حتى
حررها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب بعد
حصار شديد سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م والت منذ ذلك التاريخ الى
السلطات الايوبية في دمشق الى ان هدمها المسلمون
سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م « وبقيت خرابا ، وبلادها في يد من يملك
دمشق لا يهتم ببنائها ملك الى ان اعطاها الملك الصالح عماد الدين
اسماعيل بن الملك العادل للفرنج فيما اعطاهم من البلاد في سنة ثمان
وخمسين وستمائة (١٢٦٠) .

ثم الت ملكيتها الى فرسان الداوية ، فقاموا بتجديدها وتوسيع
رقعة حصنها حتى بات يتسع لحوالي ٢٢٠٠ من الفرسان والمقاتلة
وقد « شحنوها بالوذن والعتاد وجلبوا اليها الماء من العيون
المجاورة » ، وعظم شأن صفد في هذه الآونة وتحولت الى بلدة كبيرة
لها نشاطات وإمكانات تؤهلها لان تصبح نواة نيابة في المستقبل (٤٤)

وكان الداوية افراد إحدى أهم منظمات الصليبيين وإخوانياتهم

العسكرية، وكانوا يديرون في هذه الأونة أعمالا اقتصادية ونشاطات مالية واسعة . وعلى قاعدة من ملك المال ملك السلطة ، مارس الداوية نفوذا كبيرا على حكام الفرنجة في الشام ، كما ان تاريخهم مع الاسبتارية في المشرق ملطخ اكثر من سواهم بجميع انواع الوصمات من كذب وغدر ومذابح بلا رحمة . ولهذا عمد حكام المسلمين الى اعتبارهم « مجرمي حرب » لا يجوز الابقاء على اي منهم عندما يؤخذ أسيرا ، وهذا ما طبقه صلاح الدين إثر انتصاره في معركة حطين .

وقرر السلطان الظاهر بيبرس الاستيلاء على صفد فأعد لذلك ما لزم من معدات وبعدها وجه اقصى الضربات لكل من عكا والمناطق القائمة بين طرابلس وصور ، تحرك نحو صفد ، واستنفر قوات الشام ، ويبدو أن حجم الاستعدادات كان واسعا ، وكانت الخطة الموضوعية لمهاجمة صفد محكمة.

الموقع كان في غاية الحصانة والمدافعون عنه كانوا من اشرس المقاتلين الصليبيين واكثرهم تمرسا واشدهم صبورا ، وعمل بيبرس على عزل صفد ومنع وصول النجدات اليها ، حيث بعث قطعة من قواته لمشاغلة حصن الشقيف ورصد الطرق والممرات فقد حرص بيبرس على سلامة وصول المعدات والمجانيق والأخشاب من دمشق حرصه على منع النجدات عن صفد .

ويحدثنا ابن عبد الظاهر ان الجمال التي حملت المجانيق اصابها الوهن اثناء توجهها نحو صفد ، فجهز (بيبرس) الأمراء والجند وسائر الناس لحملها على الرقاب من جسر يعقوب ، وهو مرحلة من صفد ، وخرج السلطان بنفسه وخواصه ، وجر أخشاب المجانيق مع البقية . وبيدا حصار صفد يوم ٨ رمضان ٦٦٤ هـ - ١٣ حزيران ١٢٦٦ م وأشرف بيبرس بنفسه على تجهيز المجانيق ووجه رماياتها . وشدد المسلمون

الحصار على صنفد ، وعملوا في سبيل فتح ثغرة في الأسوار . وانقضى شهر رمضان والقتال مستعر ، وأصاب الهلع الفرنجة وسعوا إلى الاستسلام ، لكن بيبرس تشدد في شروطه وأصر على قتل فرسان الداوية .

كان بيبرس اثناء الحصار في نزوة اليقظة والنشاط وقد ضرب مثلا أعلى لجنده . كان يتفقد عساكره ويبذل لهم الأرزاق ، ويبني الخيام ، ويحضر الأطباء والجراحين ويطلق الأطعمة والأشربة للجند لاثارة حماسهم ورفع معنوياتهم . وبعد انقضاء شهر رمضان بدأ السلطان بيبرس زحفا ضد صنفد في اليوم الثاني لعيد الفطر (٢ شوال / ٦ تموز) ولم يثمر هذا الهجوم وأخفق في اختراق دفاعات صنفد وبعد مضي أسبوع جدد بيبرس المحاولة ، ومن جديد أخفق . ثم حاول ثلاثة يوم ١٤ - ١٧ ، وألح بيبرس وشدد الهجوم في اليوم التالي ، وسقطت باشورة القلعة واقتحمت عساكر

بيبرس القلعة ، وهنا أدرك الفرنجة أنه لا فائدة من متابعة المقاومة وعرضوا الاستسلام ، وأصدر بيبرس أوامره « بأن لا يرموا أحدا من الفرنج والنصارى والمستعربة غير الداوية ، فأمسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال » . وتابع الداوية المقاومة عدة أيام ثم طلبوا الأمان مجددا فمنحهم ما طلبوا بعد أن « اشترط عليهم أن لا يستصحبوا سلاحا ولا لامة حرب ولا شيئا من الفضيات ولا يؤنوا شيئا من نخائر القلعة بنار ولا هدم » .

وتوقف القتال وخرج المدافعون عن صنفد ودخلت عساكر بيبرس إليها ، وبعدما تفقدوها وجدوها بدون أموال ونخائر وأسلحة فردية . وأمر بيبرس بتفتيش الفرنجة فوجد أنهم « أخرجوا معهم الأسلحة والفضيات وأخفوها في قماشهم . وتحدثوا على جماعة من أسرى المسلمين أخذوهم على أنهم نصارى ، كذلك صغار المسلمين

المأسورين عندهم «(٤٥)». واعتبر السلطان ما اقترفه الفرنجة نقضا لشروط الاستسلام يسوغ له الأمر بإعدامهم .

وكان بيبرس ينتظر مثل هذا المسوغ ، فأصدر أوامره بقتل الفرنجة جميعا فيما عدا اثنين منهم ، أولهما أعلن عن اسلامه ، وثانيهما أطلق سراحه ليخبر بني جلدته بما وقع في صفد.

ويبدو أن الذين أعدموا كانوا من الداوية فقط ، ذلك انه بعدما سقطت باشورة القلعة أفسح المسلمون السبل أمام الفرنجة العاديين وسواهم للهرب ، إن لم نقل شجعوهم على ذلك . أضف إلى هذا أن الاسلام عرض على الذين نقضوا الاتفاق ، وواحد فقط هو الذي تحول إلى الاسلام ، ورفض البقية ، مما يدل على أنهم كانوا من الداوية الذين شهروا بشدة التعصب.

وكما حدث في المعارك السالفة كان الحضور الشعبي كبيرا أيضا أثناء حصار صفد ، وقد قتل عدد من المتطوعة ، وهذا يؤكد من جديد أن عمليات التحرير أسهمت الأمة فيها لا عن طريق تحمل نفقات جند الممالك وإعداد الأسلحة وتأمين المؤن ورجالات الإدارة فحسب ، بل عن طريق المقاتلين أيضا . وعلى هذا تحمل شعب فلسطين وأهل الشام القسمة الأكبر من اعباء تحرير الأرض ، وذلك بعدما كانوا قد تمسكوا بالأرض وتحملوا مشاق الاحتلال.

وعين بيبرس واليا لصفد « وأمر بعمارتها والزيادة فيها ، وحمل إليها الذخائر والسلاح » وولى قلعتها واحدا من قادة جيشه وشحنها بعدد من الجند ثم ارتحل مسرعا نحو دمشق (٤٦) لتجريد القوات ضد مملكة أرمينيا الصغرى .

وكان لتحرير صفد أصداً واسعة ، حيث سارع ممثلوا بقية الفرنجة نحو بيبرس يعلنون خضوعهم له ، كما سقطت قلعتا هونين وتبزين ، وقرر بيبرس إعادة ترميم قلعة صفد بعد ما لحقها من تهديم كبير

وذهب بيبرس إلى القاهرة حيث مكث هناك وقتاً قصيراً ثم توجه مجدداً سنة ٦٦٥ هـ - ١٢٦٧ م نحو بلاد الشام .

وعند وصوله إلى غزة وصل إليه رسل الفرنج يحملون الهدايا مع بعض أسرى المسلمين ويطلبون تأكيد اتفاقيات الهدنة . وتوجه بيبرس نحو صفد وهو على نية إعادة بنائها ، لكنه ما أن وصلها حتى أتته الأخبار بتوجه حملة مغولية نحو الشام ، فترك صفد وذهب إلى دمشق ، وفي دمشق عرف بعودة المغول فعاد هو أدراجه نحو صفد ، وعلى الفور أمر بإعادة حفر خندق القلعة فقسمه « على الأمراء ، وأخذ نصيباً وافراً لنفسه ومماليكه وحاشيته ، وشرع الناس في العمل ، وعمل السلطان بنفسه وببيده ، وكذلك جميع بيوتاته من بابية وغيرهم ، ولم يتوفر أحد من العمل ، ولازموا نقل الحجارة ورمي التراب ، وتسابق الناس في النجاز » .

لقد تميز بيبرس بقدرات على المناورة السياسية مساوت قدراته العسكرية ونشاطه في الميادين ، فقد وصل إليه وهو على صفد رسل الفرنج « وشاهدوا من أمرها واهتمام السلطان بها ما قطع أكبادهم حسرات ، وتحدثوا مع السلطان في أمر بلادهم » . وبعدما وجه

بيبرس النقد إلى سفراء الفرنجة طالبهم بشروط ومطالب قاسية ، وأبدى عدم اهتمامه لهم ، وأرسل أثناء المفاوضات ، وحدات من جيشه أغارت عدة مرات على عكا ، وتوجه هو نفسه نحو عكا ، وخيم بتل الفضول على مقربة منها ، وبات ليلته هناك ثم أعمل الغارة ضدها في اليوم التالي فقتل وأسر ودمر . ثم عاد نحو صنفد ، واستدعى إليه رسل الفرنج فعرض عليهم ما حملة أثناء غارته للضغط عليهم ويبدو أن ذلك لم يؤثر عليهم لذلك أمر بردهم بدون جواب (٤٧) .

وقام بيبرس إثر هذا بالاغارة على عكا ، فحاصرها عدة أيام ، لكنه عندما شعر بتعذر الاستيلاء عليها انسحب نحو صنفد فأشرف على إكمال ترميمها « فعمر الباشورة وبنى فيها أبرجة وأسواقا وخانات ، وحمامات ، فصارت بما أحدثه فيها من أحصن القلاع وأمنعها ، وأطيب البقاع وأخصبها » .

وكتب بيبرس على قلعة صنفد بعدما جدها :

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عيساوي الصالحون) (الأنبياء : ١٠٥) . أولئك حزب الله إلا إن حزب الله هم المفلحون) (المجادلة : ٢٢) . أمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها ، من خلصها من أسر الفرنج الملاحين وردها إلى يد المسلمين ، ونقلها من حوزة الديوية إلى حوزة المؤمنين ، وأعادها إلى الإيمان كما بدأ بها أول مرة ، وجعلها للكفار خسارة وحسرة ، واجتهد وجاهد حتى بدل الكفر بالإيمان والناقوس بالأذان والانجيل بالقرآن ، ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه بنفسه وبخواصه على الرؤوس . السلطان الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس ، فمن صارت إليه هذه القلعة من ملوك الاسلام ، ومن سكنها من المجاهدين ، فليجعل له نصيبا من أجره ، ولا يخله من الترحم في سره وجهره ، فقد صار يقال عمر الله

صرحها ، بعدما كان يقال عجل الله فتحها ، والعاقبة للمتقين إلى يوم الدين .»

وعندما كان السلطان الظاهر بيبرس مقيما في صفد يعمل على إعادة بنائها وصله رسول من عند صاحب يافا يطلب تجديد الهدنة فرفض ، وفي جمادى الآخرة لعام ٦٦٦ هـ - شباط / ١٢٦٨ م وصلت بيبرس الأخبار بعزم المغول الاغارة على حلب ، فاستنفذ قواته وقادها نحو غزة ، وفي الوقت نفسه أمر باستنفار قوات دمشق وسواها وانتظار اوامر جديدة ، وتحرك جيش السلطان نحو دمشق ، وعندما وصل إلى العوجا رفعت تقارير إلى السلطان بأن أهل يافا يحملون الميرة إلى عكا ، وكانت الميرة ممنوعة عن أهل عكا ، واقاموا في يافا حانة ، وأوقفوا فيها عدة من المسلمات ، واعتمدوا أسبابا ليست في هدنة ، وقرر بيبرس مهاجمة يافا وتحريرها ، وقبل أن يحرك قواته بعث إليها وفدا يطلب تسليمها إليه ، ثم ما لبث أن قاد قواته وهاجمها على حين غرة ، فتمكن منها ثم زحف ضد قلعتها «فسلمها أهلها» في يوم ٢٠ جمادى الآخرة / آذار ١٢٦٨ م ، وقام بيبرس باجلاء سكانها ثم أمر بهدمها ، واكتفى بإقامة بعض المحارس ونقسط الانذار على الساحل* (٤٨)

كان تحرير يافا آخر إنجازات بيبرس وفتوحاته الكبرى في فلسطين ، لكنه لم يكن بطبيعة الحال آخر أعماله ضد الصليبيين في بلاد الشام ، ولا حتى آخر نشاطاته في فلسطين نفسها ، وقام بيبرس بعد تحريره ليافا بانتزاع حصن الشقيف من فرسان الداوية ، كما حرر أجزاء هامة من سواحل الشام ، وأمكنه تحرير مدينة انطاكية ، وبذلك أزال من الوجود ثنائي دول الصليبيين تأسيسا في الشرق كما حرر قلعة حصن الأكراد في منطقة حمص.

وجاء تحرير انطاكية سنة ٦٦٦ هـ - ١٢٦٨ م ، فبعدها هاجم بيبرس طرابلس ثم قلعة الحصن سار إلى حماه وهناك قسم قواته إلى ثلاثة أقسام أرسل الأول منها نحو مملكة كليكيارمونية ،

وأرسل القسم الثاني نحو شاطئ البحر المتوسط قرب السويدية ، وقاد بنفسه القسم الثالث نحو أنطاكية ، حيث شدد عليها الحصار بعدما عزلها من جميع الجهات ، وعجز الفرنجة عن الدفاع عن أنطاكية ، وبعد حرب ضروس تمكنت قوات بيبرس من تسلق أسوار المدينة وفتحها ، وإثر هذا استسلمت قلعة أنطاكية ، وتبع تحرير أنطاكية تحرير ما حولها ، وطلب هيثوم ملك أرمينيا الصغرى المهادنة على أساس دفع الجزية ، وبتحرير أنطاكية يكون الشام الشمالي قد تحرر تماما ، وبات على المسلمين تصفية الجيوب الداخلية وتحرير طرابلس و عكا ، وبالفعل تمكن بيبرس بعد وقت قصير من تحرير قلعة الحصن وأخذ يعد العدة لتحرير عكا وطرابلس (٤٩) .

وأولى بيبرس عكا كل اهتمامه فلم يتوقف عن الاغارة عليها ، مع تعريضها للضغط السياسي والاقتصادي . ولعل ما استجد من تحركات مغولية ضد بلاد الشام قد حال دون تركيز طاقات الدولة العسكرية ضد عكا ، اذف إلى ذلك أن المساعدات تدفقت على عكا من قبرص ومن أوروبا التي عاد اليها القديس لويس ونشط فيها في سبيل حملة صليبية جديدة .

وزاد الصليبيون من تحصين عكا لأن سقوطها كان يعني نهاية وجودهم في المشرق وتقدمت الاشارة الى قيام الاتصالات بين المغول وحكام أوروبا وتبادل الرسل والتباحث في سبيل عمل مشترك ضد بلاد الشام (٥٠) .

وكان السلطان بيبرس قد توجه عام ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م سرا نحو مكة ففضى فريضة الحج ، ثم عاد الى بلاد الشام فتفقدتها جميعا ثم توجه إلى مصر ، وما كاد يستقر في القاهرة حتى جاءته الاخبار مع حلول عام ٦٦٨ هـ / خريف ١٢٦٩ م بتحريك المغول «وانهم تواعدوا مع الفرنج الساحلية ، الذين شعروا بالقوة إثر وصول بعض النجيدات الأوروبية إليهم . واستشار بيبرس أركان دولته

فأشاروا عليه بتجريد الجيوش نحو الشام والبقاء شخصيا في القاهرة ، لكنه رفض هذا الرأي مقدرا ان وجوده ضروري لأن « اسمه يرد الأعداء المتوثبة من كل جانب ، ويصيبهم بسهام المصائب » .

وسير بيبرس قواته نحو بلاد الشام ، وتحرك هو على رأس قطعة صغيرة من فرسانه ، وكان فرنجة عكا قد وصلتهم نجدة أوربية اشعرتهم بالقوة ، فراسلوا مجددا أبغا بن هولكو وخرج فرنج الغرب واهل عكا ، وخيموا بظاهر عكا ، وصاروا يركبون وتعجبهم نفوسهم ، وبلغتهم قلة من وصل مع السلطان الى الشام فتوهموا أنه لا يقصدهم ، وبلغ بيبرس هذا التحرك فراسل قواته في دمشق وصدف وأمر قوات صدف بالانغارة على عكا واستدراج قواتها الى كمين أعده وقاده شخصيا ، ونفذت الخطة بإحكام وأنزل بيبرس ضربة شديدة بالصلبيين . ومن ثم توجه نحو صدف ومنها الى دمشق (٥١) .

وكان القديس لويس قد أقبل في سنة ٦٦٩ هـ - ١٢٧١ م بحملة صليبية جديدة قادها ضد تونس ، وأخفت هذه الحملة ولاقى الملك الفرنسي مصرعه ، والذي يهمننا نكره هنا أن بعض الفرنجة وصلوا بسبب هذه الحملة الى عكا ، وهو ما جعل قواتها تغير مواقفها وتجدد نشاطاتها العدوانية ضد المسلمين ولاسيما ضد صدف ، وكان الظاهر بيبرس مشغولا في المناطق الوسطى والشمالية من الشام ، وعندما فرغ من أعماله هناك توجه نحو فلسطين وقصد هذه المرة قلعة القرين التي كانت تقع في تلال الجليل الغربية الى الشمال الشرقي من عكا وعلى مسافة ثلاثين كم منها ، وكان حصن القرين هذا لاسبتار الألمان ولم يكن لهم بالساحل غيره ، وكان من أمنع الحصون وأضرها بصدف ، وكان السلطان نوبة فتوح صدف أغار عليه ، بل غار عليه أن يكون مثله للكفر ... فسار الى صدف ، وجهاز منها المنجنيقات وساقها الى القرين ونازله « وشدد عليه الحصار وبعد قتال دام

عشرة أيام عرض المدافعون الاستسلام فتم الاتفاق معهم ، وتسلم بيبرس الحصن وأمر بتدميره(٥٢).

وبعد سقوط القرين عقد بيبرس مفاوضات مع جون مونتفرت صاحب صور انتهت الى عقد هدنة فرض بيبرس شروطها واضطر الى قبولها للتفرغ لعكا وللفرنجة الذين وصلوا اليها في اواخر عام ٦٦٩ هـ - ١٢٧١ م ، فقد أغار هؤلاء على بعض أراضي صغد ونهبوها(٥٣) ذلك أن بيبرس كان قد قصد القاهرة بعد تحريره للقرين .

وازداد في عام ٦٧٠ هـ - ١٢٧٢ م نشاط فرنجة عكا ضد ممتلكات صغد كما عظم نشاط المغول في المناطق الشمالية من بلاد الشام وتم ذلك بتنسيق بين الطرفين . وتحرك بيبرس باتجاه حلب ، واستطاعت قوات قاقون رد الفرنجة ودفعتهم عنها ، وبعدما عاد بيبرس الى دمشق ، خرج منها :

« واستصحب العساكر المصرية والشامية بغية الغارة على عكا ، فتوالت أمطار كثيرة ... وكاد الناس يهلكون لعدم ما يستظلون به ، فانثنى عزمه عن الاغارة ، ورد العسكر الشامي ، وسار الى الديار المصرية » (٥٤) .

وفي القاهرة استقبل بيبرس رسل فرنجة عكا وتفاوض معهم وتم التوصل الى عقد هدنة مدتها عشر سنوات وعشرة اشهر تبدأ من ٢١ رمضان ٦٧٠ هـ - ٢٢ آذار ١٢٧٢ م ، وحلف كل طرف متعهدا بالالتزام والوفاء(٥٥) .

ويبدو أن بيبرس قبل بعقد هذه الهدنة لادراكه أن عكا لا يمكن الاستيلاء عليها والدولة مهددة من المغول والمواصلات مفتوحة بدون توقف بين عكا وقبرص وأوروبا . وهو لا يملك قوة بحرية يمكنها مساعدة القوات البرية في حصار عكا . ويبدو أن فرنجة عكا رضوا بعقد الهدنة لشراء سلامتهم سيما وقد برهن تحالفهم مع المغول على عدم جدواه .

بهذا الاتفاق ختم الظاهر بيبرس نشاطه العسكري ضد الفرنجة في فلسطين . ولاشك ان ما أنجزه كان عظيما ، وليس من المغالاة القول إن بيبرس استأنف مسيرة صلاح الدين ، وإن أعماله كانت متممة لما شرع به صلاح الدين بعد حطين وتوقف بسبب الحملة الصليبية الثالثة ووفاته المبكرة ، ويأتي الظاهر بيبرس بما حققه من نجاحات عظمت في المرتبة نفسها التي احتلها : عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، ذلك أن زنكي قاد أعمال التحرير الأولى في مرحلة الموصل ، ونور الدين محمود قاد أعمال التحرير والوحدة في مرحلة حلب ، وصلاح الدين قاد مرحلة دمشق وحقق النصر في حطين ، وبيبرس الآن قاد مرحلة القاهرة وأعمال تصفية الوجود الصليبي في فلسطين والشام .

وتوفي بيبرس سنة ٦٧٦ هـ - ١٢٧٧ م وهو في ذروة نشاطه ، ولعله سقى السم . وقد دفن في دمشق ليس بعيدا عن قبر صلاح الدين ، ذلك ان أبطال المراحل الأربع قد دفنوا في أرض الشام وحظي بيبرس بمكانة لدى أهل الشام ومصر لم يحظ بها سواه من سلاطين المماليك ، الى حد ان أخباره تحولت الى ملاحم شعبية امتزجت فيها حقائق التاريخ بالخيال القصصي الملحمي ، فهناك أكثر من ملحمة متداولة تحت اسم السيرة الظاهرية أو سيرة الملك الظاهر ، وتصور هذه الملاحم مشاعر شعب تعلق دوما بالأرض في عصر شهد أعظم الأعمال في سبيل التحرير ولاعجب في ذلك ، صحيح ان بيبرس قاد رسميا قوات المماليك المحترفة لكن حجم المتطوعة في حملاته لم يكن أقل عددا ولادورا من المماليك مع الأخذ بعين الاعتبار ان الشعب العربي في الشام ومصر هو الذي تحمل أوزار الحرب ونفقاتها وصنع السلاح والعتاد وبنى القلاع وقدم الإداريين وسواهم .

وكان بيبرس قد خطط قبل وفاته الى انتقال الملك من بعده الى ابنه الملك السعيد بركة ، وهذا ما حدث ، فما ان وصلت الأخبار الى القاهرة حتى جرت بيعة بركة بالسلطنة ، وكان شابا في مقتبل العمر

تنقصه الخبرة والتجربة ، لهذا واجه المشاكل وعاش وسط الصراعات ، ووجد نفسه بعد بضعة أشهر من تسلمه السلطنة مضطرا الى التنازل عنها لصالح اخيه سلامش وكان طفلا ابن سبع سنوات فقط .

ورست مقاليد السلطنة الآن فعليا بيدي الامير قلاوون الالفي ، واستغل قلاوون فرصته أحسن استغلال ، فزج بمعارضيه في السجن وتخلص من مناوئية ، ثم عزل السلطان الطفل وتسلم السلطنة بلقب المنصور .

وهكذا زالت أسرة الظاهر بيبرس ، وحل محلها أسرة قلاوون التي حكمت دولة المماليك لمدة تقارب القرن من الزمن . ووجد قلاوون بعض المصاعب وواجه أعمال المعارضة فتغلب عليها ، ولكن بعدما استغرقت معظم أوقاته ، وكان لذلك الوضع أثره على العلاقات مع الصليبيين في عكا وبقية أجزاء بلاد الشام .

وتوجه السلطان قلاوون سنة ٦٧٩ هـ - ١٢٨٠ م نحو بلاد الشام ، وركب الطريق الساحلية ، وعسكر أثناء سفره في الروحاء على الساحل على مقربة من عكا ، وهناك وصلت اليه رسائل الاسبتارية « يسألون تقرير الهدنة والزيادة على الهدنة الظاهرية » وأجابهم قلاوون الى مطلبهم وعقدت هدنة جديدة بين قلاوون وابنه وولي عهده علي من جهة وبين نقولاس لورجن مقدم بيت الاسبتار وجميع الاخوة الاسبتارية بعكا « لمدة عشر سنين كوامل متتابعات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، أول ذلك يوم السبت ثمانية عشر المحرم » سنة ٦٨٠ هـ - ٣ أيار ١٢٨١ م (٥٦) .

وبعد مضي قرابة الشهرين من توقيع الهدنة ، تم التوصل الى هدنة ثانية بين قلاوون من جهة وبوهموند صاحب طرابلس من جهة مقابلة لمدة عشر سنوات ايضا مع عشرة أشهر وعشرة أيام وعشر

ساعات اعتبارا من يوم ٢٧ ربيع
الأول ٦٨٠ هـ - ٥ تموز ١٢٨١ م .

واستمرت حالة الهدنة مسع طرابلس حتى سنة ٦٨٧ هـ - ١٢٨٨ م ففي نهاية هذه السنة نقض فرنجة طرابلس شروط الهدنة حيث أقدموا على نهب مجموعة من التجار المسلمين وأسروا عددا منهم ، وحين وقع هذا كانت أوضاع السلطنة مستقرة وجيوشها جاهزة ، لذلك ما أن بلغ السلطان خبر ما حدث حتى زحف نحو طرابلس على رأس قوات الشام ومصر ، ونزل عليها وحاصرها حصارا شديدا حتى أخذها عنوة في ٤ ربيع الآخر ٦٨٨ هـ - ٢٤ نيسان ١٢٨٩ م .

وبتحرير طرابلس زالت فعليا المملكة الرابعة التي أسسها الفرنجة في المشرق ، وبهذا أكمل قلاوون ما قام به رفيقه بالاسلاح من قبله السلطان بيبرس ، ولم يبق الآن للصليبيين سوى عكا ، وكان لابد من انتظار الفرصة المناسبة للزحف ضدها وتحريرها (٥٧) .

هذا ويلاحظ أن الهدنة - التي ذكرناها اعلاه - التي عقدت مع اسبتارية عكا ، شملت أفراد هذه المنظمة فقط ولم تشمل بقية قوى الصليبيين ومؤسساتهم في عكا ، وبناء عليه جرت مفاوضات بين السلطنة المملوكية وبين الداوية انتهت بعقد اتفاقية هدنة مماثلة بين « السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي وبين المقدم افرير كويوم ديباجوك مقدم بيت الداوية بعكا والساحل وبين جميع الأخوة الداوية ... لمدة عشر سنين كوامل متواليات ومتتابعات وعشرة شهور ، أول ذلك يوم الأربعاء خامس المحرم سنة احدى وثمانين وستمائة للهجرة النبوية الحمديّة » ١٥ نيسان ١٢٨٢ م (٥٨) .

لقد كانت قوى أوروبا ممثلة في عكا ، وبعدها عقد الداوية والاسبتارية الهدنة مع السلطنة بات من الضروري عقد هدنة جماعية

باسم عكا بما في ذلك المنظمات التي كانت فيها ، وبالفعل توجه وفد الى القاهرة مثل قسوى عكا الصليبية ومنها الداوية والاسبتارية ، وبعد مفاوضات تم التوصل الى عقد هدنة بين « السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي ... وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعتليت وببلادها » وأبـرم الاتفاق في ٥ ربيع الأول ٦٨٢ هـ - ٣ حزيران ١٢٨٤ م ، وكانت أهم بنوده :

- ١- مدة الهدنة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام .
- ٢- منح التجار من رعايا السلطان الأمن وحرية العمل التجاري في عكا والبلاد الساحلية .
- ٣- توقف الفرنجة عن الاعتداء على اراضي دولة السلطان .
- ٤- لايجد الفرنجة في عكا وعتليت وصيدا حصنا ولاسورا .
- ٥- تبادل الرعايا الفارين ضمن شروط محددة .
- ٦- حرية الملاحة وتقديم العون للسفن الجانحة والمحافظة على محتويات السفن لتسليمها الى اصحابها او من يلوذ بهم .
- ٧- يتولى فرنجة عكا إنذار السلطان وإعلامه بأي تحرك أوروبي مضاد له وكذلك بالنسبة لتحركات المغول .
- ٨- يضمن السلطان حماية عكا وعتليت من أعمال القرصنة .
- ٩- السماح للحجاج الأوروبيين بالوصول الى الأماكن المقدسة وضمان أمنهم وسلامتهم وحرية تعبدهم (٥٩) .

ويبدو أن اوضاع السلطنة الداخلية وتعاضم الخطر المغولي واشتداده هي التي أجبرت السلطان قلاوون على توقيع هذه المعاهدة وغيرها ، فقد أغار المغول على الشام ووصلت قواتهم قرب حمص سنة ٦٨٠ هـ - ١٢٨١ م (٦٠) .

كما أن قلاوون قد واجه في تلك الأونة حركة تمرد خطيرة ضده في دمشق قادها سنقر الأشقر واستمرت أعمال التآمر ضده دونما توقف (٦١) .

لقد غدت عكا تحت رحمة السلطان قلاوون ، كما أنه كان إسقوط طرابلس أصداء واسعة في أوروبا ، وسعت البابوية الى إثارة حملة صليبية جديدة ، لكن جهودها لم تثمر الا قليلا .

وكانت عكا قد استولى عليها سنة ٦٨٥ هـ - ١٢٨٦ م هنري الثاني ملك قبرص (١٢٧٢) وتوج بها ملكا ، وتجددت الاتصالات المغولية الصليبية ، وبذلت الجهود للقيام بعمل صليبي مغولي مشترك (٦٣) واثمرت هذه الجهود كلها باستجابة بعض « رعاع الفلاحين والمتعطلين من سكان المدن الصغيرة » في شمالي ايطاليا ، وقدم هؤلاء الى عكا تحت قيادة اسقف طرابلس سابقا .

وكان الملك هنري الثاني جدد الهدنة مع السلطان قلاوون وبعث هذا كله بعض الأمل في عكا ، لكنه لم يتعد الشكل السرابي ، وكان إسقوط طرابلس وقدم النجيدات من أوروبا وإستمرار النجيدات من قبرص قد زاد من حجم سكان مدينة عكا ، وبالتالي رفع من قدرتها العسكرية .

« واجتمع داخل أسوار عكا طوائف تمثل مختلف الأمم المسيحية ، وعاشت كل طائفة منعزلة عن الأخرى في حي خاص بها ، وأخذ كل واحد من قادة المناطق في الشام ومقدمي الاخوانيات العسكرية الكبرى وممثلي ملوك فرنسا وانكلترا والقدس ، يمارس سلطات مستقلة ، وعلى هذا كان في عكا سبع عشرة سلطة مستقلة ، الأمر الذي نجم عنه فوضى كبيرة » .

ولذلك لاغرابة أن المدينة غدت بؤرة فساد وشروا وانهطاط خلقي واضطراب مستمر ، ورخاء مادي كبير وأربساح تجسارية خيالية ، فمقر الداوية لم يعد ديرا للفرنسان ولتقديم الخدمات بل مستودعا للأموال والنخائر وبزكا للاقراض بنسب فائدة عالية جدا .

وقام القادمون الجدد من الايطاليين بإثارة المزيد من الفوضى والاخلال بالأمن وأخذوا يسلبون وينهبون التجار والباعة من المسلمين ، وكان هنالك صراع مرير بين البيوتات التجارية التابعة لجنوا والبنديقية وسواهما .

وفي صيف سنة ٦٨٩ هـ - ١٢٩٠ م انفجرت أعمال العنف في عكا ، ووجهت هذه الأعمال ضد المسلمين داخل المدينة وخارجها ، وقد ذبح الصليبيون كل مسلم صادفوه ونهبوا مساكن معه من مال وبضائع (٦٤) .

ووصلت أخبار المذبحة هذه الى السلطان قلاوون فاشتعل غضبا ، واعتبر ان فرنجة عكا قد خرقت اتفاق الهدنة ، وأنه يملك جميع المسوغات لاعتبار الهدنة ملغاة ، وسارع قلاوون فأرسل تجريدة من قواته نحو منطقة عكا لاستطلاع خبر ما حدث ، ولتثبيت الوجود المملوكي في المنطقة ، وفي الوقت نفسه أصدر أوامره بحشد جميع القوات في الشام ومصر ، وجرى فرض الضرائب على قرى غوطة دمشق وبعلبك في سبيل تحصيل الكميات اللازمة من الأخشاب لصنع المجانيق والأبراج المتحركة وغيرها من أدوات الحصار .

وتناوشت تجريدة قلاوون مع قوات عكا ، وسارعت سلطات عكا الى مراسلة السلطان وتقديم الاعتذار له ، ثم أعقب ذلك وصول رسله الى عكا حيث طالبوا بإصرار على تسليمهم الذين تولوا أعمال القتل والمذابح ، وبعد طول مناقشات لم يستجب لمطلب السلطان فحسب ، بل حاول المسؤولون في عكا اقناع رسله بأن بعض تجار المسلمين هم الذين فجروا الفتنة .

وملك قلاوون الآن جميع المسوغات للاحتكام الى السلاح ، وهكذا زحف على رأس قواته يريد عكا وصدرت الأوامر الى قوات الشام للاجتماع مع قوات السلطان قرب قيسارية .

وكان قلاوون قبل مغادرته القاهرة مريضا ، لكن مرضه لم يثنه

عن مقصده غير انه ما ان غادر القاهرة حتى اشتد به المرض فتوفي ، وكان ذلك يوم ٦ ذي القعدة ٦٨٩ هـ - ١٠ تشرين الثاني ١٢٩٠ م (٦٥) .

وتنفس اهل عكا الصبءاء وخيل اليهم انهم نجوا وكتبست سلامتهم ، لكن لبعض الوقت ، فعلي بن قلاوون ، وولي عهده ، كان قد توفي من قبل ، وعزم قلاوون على تسمية ابنه خليل وليا لعهد له لكنه تراجع ، وتوهم الصليبيون ان صراعا سينشب على السلطة كما جرت العادة ، وبالفعل جرى شيء من هذا القبيل ، لكن خليل بن قلاوون برهن على قدرات واسعة وطاقت كبيرة ، واستطاع الاشراف خليل السيطرة على الأوضاع وتثبيت قدميه بالسلطة ، والتفت على الفور نحو عكا عازما على متابعة ماشرع به والده قبله .

وارسلت سلطات عكا رسلا الى الاشراف خليل لتهنئته بإرتقائه عرش السلطنة ، وللاعتذار له عما حدث في عكا مع طلب تجديد الهدنة ، لكن الاشراف لم يستمع لما جاء به الرسل وألقى بهم في السجن فكان آخر العهد بهم ، وعبر بذلك عن تصميمه على قصد عكا بجيوشه .

لقد حشد الاشراف قواتا عملاقة ، واعد الأسلحة والمعدات ولاسيما المجانيق ، وابراج الحصار ، وتحركت القوات نحو عكا في ربيع الاول ٦٩٠ هـ - آذار ١٢٩١ م ، وكان المؤرخ المشهور ابو الغداء بين افراد القوات التي تحركت من حماة نحو عكا ، ويحدثنا عن زحف القوات وعما عانته أثناء ذلك بقوله :

« وتسلمنا منه (حصن الأكراد) منجنيقا عظيما يسمى المنصوري حمل مئة عجلة ، ففرقت في العسكر الحموي ، وكان المسلم منه الي عجلة واحدة لاني كنت اذ ذاك امير عشيرة ، وكان مسيرنا بالعجل في اواخر فصل الشتاء ، فاتفق وقوع الامطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق ، فقاسينا من ذلك بسبب

جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة ، وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد الى عكا شهرا وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة ، وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصفار مالم يجتمع على غيرها .

وكان تعداد القوات التي تجمعت أمام عكا كبيرا « معها اثنان وتسعون منجنيقا » من مختلف الأنواع والأحجام ، وبعدها اكتمل تجمع القوات وتجهيز المعدات صدر صباح الجمعة ١٧ جمادى الأولى ٦٩٠ هـ - ١٨ أيار ١٢٩١ م الأمر بالهجوم بوساطة قرع كمية هائلة من الطبول وأدوات موسيقى الحرب رتبت على ظهور ثلاثمائة جمل . وفي داخل عكا كان الصليبيون قد اعدوا العدة للدفاع ، ولنتذكر هنا ان المدينة حوصرت من جانب البر فقط وبقيت غير مهددة من الجانبين البحريين وكانت النجيدات والمؤن والمعدات تصلها بلا انقطاع من قبرص وسواها ، ولهذا « لم يغلغ الفرنج غالب أبوابها (عكا) بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها » .

واشتد الحصار ونشط المسلمون في قصف أسوار المدينة وفي فتح الثغرات فيها ونقب الأبراج ، وقاوم الفرنجة ، وقام فرسانهم بأكثر من هجوم ليلي على معسكر المسلمين ، ويحدثنا أبو الفداء عن المقاومة بقوله :

« فكنا على جانب البحر ، والبحر عن يميننا اذا واجهنا عكا ، وكان يحضر الينا مراكب مقببة بالخشب المليس جلود الجواميس ، وكانوا يرموننا بالذشاب والجروح ، وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من البحر واحضروا بطبسة (مركبا) فيها منجنيق يرمي علينا وعلى خيمننا من جهة البحر ، فكنا منه في شدة » .

ونجح المسلمون بعد حصار استمر قرابة الشهر ونصف الشهر في خرق الأسوار ودكها وشقوا طريقهم إلى داخل المدينة :

« ولما هجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب ، وكان

في داخل البلد عدة أبرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها .

ودار قتال عنيف داخل طرقات عكا ، وتسابق الفرنجة نحو ميناء المدينة وتزاحموا على الأرصفة ، ويبدو أن عدد المراكب لم يكن كافيا ، وقاتل فرسان الداوية دفاعا عن حصنهم في المدينة ، وقبل أن يسقط حصنهم :

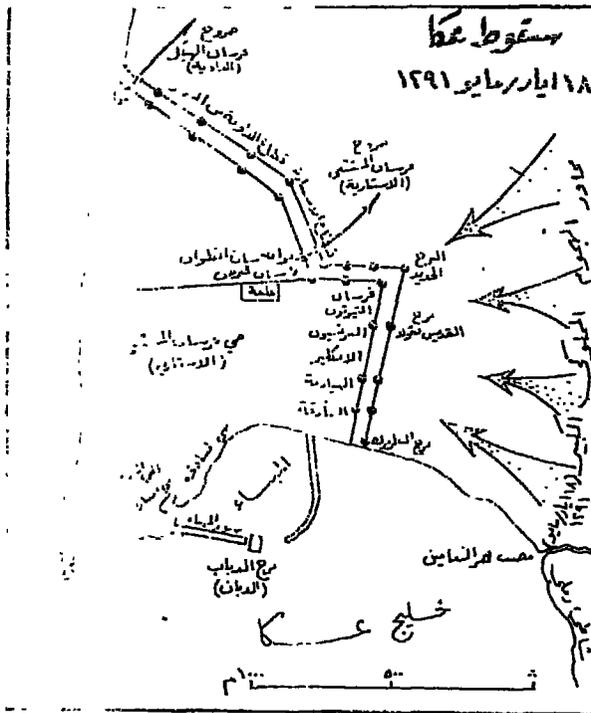
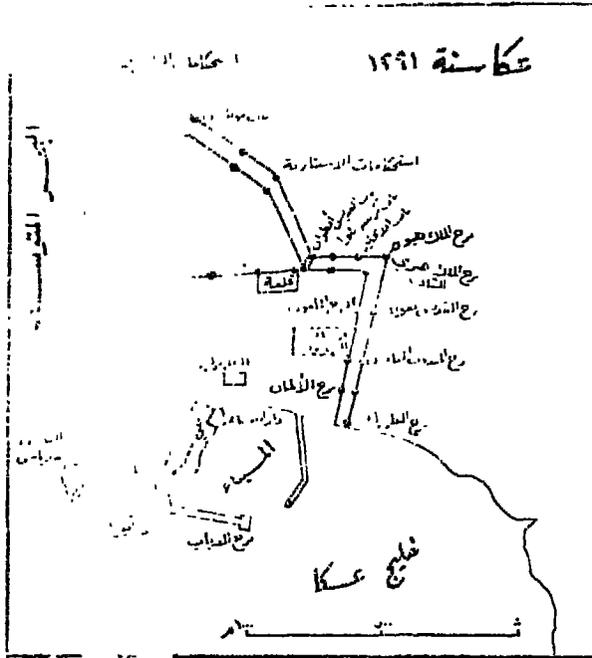
« تمكن أحد عشر واحدا منهم من الهرب من بساب سري ، وصعدوا إلى ظهر مركب كان بانتظارهم وحملوا معهم جميع الثروات التي جمعوها في الشرق خلال قرنين من الزمن » (٦٦) .

وبعدما صفت عكا للمسلمين أمر السلطان الأشرف خليل بتدميرها حسب القاعدة التي كان السلطان الظاهر بيبرس طبقها ، وما إن وصلت أخبار تحرير عكا إلى المناطق الساحلية التي كانت ماتزال بأيدي الفرنجة مثل عتليت وصيدا وبيروت « حتى ألقى الله الرعب » في قلوب أهلها فأخلوها وهربوا .



بذلك طويت ملحمة الحروب الصليبية ، وهي بلاشك من أعظم ملاحم التاريخ وأطولها ، استمرت وقائعها مدة تقارب القرنين من الزمن واشتركت فيها أوروبا كلها بشعوبها وطاقاتها .

ولوقائع هذه الحروب دروس وعبر ونتائج خطيرة على المشرق العربي وأوروبا سواء من الجوانب السياسية والاقتصادية والحضارية والعسكرية كافة . ولاشك أن أهم دروس وعبر هذه الملحمة هو : أن العرب تحل بهم الهزيمة عندما تكون صفوفهم ممزقة وقواهم مبعثرة ، ولا يمكن لشمل العرب أن يجتمع إلا بالوحدة . وبعدما طرد الصليبيون من المشرق ، وقبل أن يزول



الخطر المغولي انتاب الضعف دولة المماليك وأخذت تتخبط بأزمات وصراعات مدمرة ، ومنذ ذلك الحين شرعت قوة العرب بالشرق بالضعف وحضارتهم بالتدهور السريع والجمود المقيت ، بينما بعثت في أوربا التي خسرت الحروب الصليبية حضارة سببت لها القوة وقادتها من جديد نحو ديار العروبة والإسلام .

ويتساءل الباحث عن أسباب انحطاط العرب مع أنهم حازوا النصر ، وبعث أوربا مع أنها كانت المهزومة ؟ ولعل من بين أسباب ذلك أن أوربا الاقطاعية الشديدة التمسك بالكاثوليكية حين خسرت الحرب كانت تلك الخسارة ضربة مميتة للنظام الاقطاعي والكنيسة معاني أوربا الغربية ، وفي المقابل نجد أن الحروب الصليبية التي طال أمدها قد مكنت في البداية القادة العسكريين الغرباء في الشرق المسلم من تسلم زمام الأمور ، وساعدت على التعصب الديني ، وعلى حلول الغيبيات محل العقل ، وخلقت إلى جانب الاقطاع العسكري اقطاعا دينيا كان جديدا كل الجدة في تاريخ الإسلام ، ومع الأيام زادت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات المدنية ، وترسخت قواعد انظمة للكهنوت الاقطاعي في الاسلام .

وعندما توقفت الحرب أصبح الجند المماليك عالة على الأمة ، ثم إن الشعور بالنصر والسلم والأمان بعد عهود طويلة من الحروب والدمار ، مع سيطرة التصوف وجبروت شيوخ الطرق ، ومع زوال عوامل التحدي دفع العرب نحو الاخلاص إلى الراحة والسكينة ، وإلى قبول نوع جديد من التمزق السياسي ، أضف إلى هذا بما أن الأمة وجهت أيام الحروب معظم طاقاتها ، ورصدت كافة إمكاناتها المادية والعقلية للمعركة ، ولوجود حالة استثناء (طوارئ) بشكل دائم ، عطل هذا مع الأيام الكثير من جوانب التجديد في الحياة والحضارة ، وولد الأوهام والتسليم لشطحات الصوفية ، ومعروف أن حالة الاستثناء تلغي دور العقل لأنها تعطل الحرية ، ويولد هذا بالتالي التعصب الأعمى والتزمت والجهل والاحتكار والامية .

إن تعطيل الحريات وإهمال الحضارة والثقافة والتعصب الأعمى كان وما زال الداء العضال وأفة العرب العظمى ، ومعلوم أن العرب لم يتمكنوا قط من صنع حضارة وثقافة وهم مستعبدون ممزقون ، لكنهم كلما اتحدوا ، وملكوا استخدام العقل بكل اتزان وحرية وتسامحوا بمنطق متفتح ، صنعوا كل شيء مفيد ، ففي الوحدة الهادفة الواعية كمن - ولا يزال يمكن - سر نهوض العرب والمسلمين ، لأن الله مع الجماعة .

الحواشي والهوامش

الباب الثاني

الفصل الأول

- ١ - تاريخ حلب للعظيمي - ط . دمشق ١٩٨٤ ص ٣٥٦ .
- ٢ - الحرب الصليبية الأولى لحسن حبشي - ط . القاهرة ١٩٤٧ ص ٢١ - ٢٢ .
- ٣ - أوروبا العصور الوسطى لسعيد عبد الفتاح عاشور - ط . القاهرة ١٩٦٦ .
- ص ٣٥٦ - ٣٦ ، ٩١٦ . بابوات من الحي اليهودي - ترجمة عربية - ط . دمشق ١٩٨٣ ص ٢٥٩ - ٢٤٠ .
- ٤ - أعمال الفرنجة ، ٨٢ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ابن القلانسي ، ١٣٣ - ١٣٦ ، العظيمي ، ١٩١ و - ط . الكامل ، ط . القاهرة ، ٨ / ١٨٦ - ١٨٧ ، زبينة الحلب ، ٢ / ١٢٩ - ١٣٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٦ / ٨٩ ط - ٩٠ و ، الحركة الصليبية ، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٦٣ ، ١ / ٢٠٠ - ٢١٨ ،
- ٥ - سنتعرف إلى هؤلاء بالتفاصيل الوافية في الجزء التالي .
- ٦ - سنقدم بعد قليل عرضاً موجزاً حول تاريخ الدولة البورية في دمشق .
- ٧ - ابن القلانسي ص ٢١٤ .
- ٨ - ابن القلانسي ص ٢١٤ .
- ٩ - ابن القلانسي ص ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ترجمتا دقاق وطفلكين من تاريخ ابن عساكر - زكار منخل ص ٣٨٦ ، ٤٠٨ .
- ١٠ - ابن القلانسي ص ٢٣٤ .
- ١١ - ابن القلانسي ص ٢٣٥ .
- ١٢ - ابن القلانسي ص ٢٣٥ . انظر أيضاً مركة الزمان : سنة ٤٩٨ هـ .
- ١٣ - ابن القلانسي ص ٢٤٠ . الكامل - ط . القاهرة - ٨٠ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .
- ١٤ - ابن القلانسي ص ٢٤١ - ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦٣ . الكامل - ط . القاهرة - ٨٠ ص ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ . سبط ابن الجوزي يوسف ابن قزواغلي - مركة الزمان في تاريخ الأعيان - ط . حيدرآباد الدكن ١٩٥١ ج ١ ص ٢٥ ، ٢٧ - ٢٨ .
- ١٥ - ابن القلانسي ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .
- ١٦ - انظر وصف عملية اغتيال مودود لدى ابن القلانسي ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ، وفي نصوصنا المقبلة مع رأي وليم الصوري ص ٥٥٠ .
- ١٧ - ابن القلانسي ص ٣٠٦ - ٣١٣ ، حيث أثبت نسخة كاملة لهذا المذخور .
- ١٨ - ابن القلانسي ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

- مرآة الزمان - ط . حيدرآباد ج ١ ص ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .
١٩ - ابن القلازي ص ٢٥٠ - ٢٧١ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ ص ٢٢٧ - ٢٢٧ .
مرآة الزمان - ط . حيدرآباد - ج ١ ص ١٢٧ - ١٤٣ . وليم الصوري ج ٢ ص ٦٤٥ - ٦٤٧ .
٢٠ - ابن القلازي ص ٢٧٢ - ٢٨٩ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ ص ٢٣٩ - ٢٤٦ .
مرآة الزمان - ط . حيدرآباد - ج ١ ص ١٤٥ - ١٥٣ .
٢١ - ابن القلازي ص ٢٩٠ - ٢٩٢ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ ص ٢٤٦ . مرآة
الزمان - ط . حيدرآباد - ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٤ .
٢٢ - ابن القلازي ص ٢٩٧ ، ٤١٣ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ ص ٢٥٩ ، ٣٦٤ .
٢٣ - ابن القلازي ص ٤١٨ ، ٤٢١ - ٤٢٢ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ ص ٣٦٤ .
مرآة الزمان - ط . حيدرآباد - ج ١ ص ١٧١ - ١٧٢ .
٢٤ - ابن القلازي ص ٤٢٤ - ٤٢٧ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .
٣٦٧ - ٣٦٨ . مرآة الزمان - ط . حيدرآباد - ج ١ ص ١٧١ - ١٧٢ . وليم الصوري ج ٢
ص ٧٠٥ - ٧٠٧ .
٢٥ - ابن القلازي ص ٤٥٠ - ٤٥٣ . وليم الصوري ج ٢ ص ٧٤٢ - ٧٥٢ .
٢٦ - ابن القلازي ص ٤٦٣ .
٢٧ - ابن القلازي ص ٤٦٣ - ٤٦٦ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٩ ص ٢٠ - ٢١ .
مرآة الزمان - ط . حيدرآباد ج ١ ص ١٩٧ - ٢٠٠ . وليم الصوري ج ٢ ص ٧٧٨ - ٧٨٧ .
٢٨ - ابن القلازي ص ٤٧٥ - ٤٧٦ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٩ ص ٢٦ - مرآة
الزمان - ط . حيدرآباد ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٣ .
٢٩ - ابن القلازي ص ٤٩١ .
٣٠ - ابن القلازي ص ٥٠٤ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٩ ص ٤٥ - ٤٦ . مرآة
الزمان - ط . حيدرآباد ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢٣ . وليم الصوري ج ٢ ص ٨١٤ - ٥١٥ .
٣١ - وليم الصوري ج ٢ ص ٨١٥ .

الفصل الثاني

- ١ - الباهر لابن الأثير : ١٦ - ٣٥ .
- ٢ - الباهر : ٣٥ .. الكامل لابن الأثير : ٨ / ٣٢٥ - ٣٢٦ .
- ٣ - الباهر : ٣٥ - ٣٨ .
- ٤ - الكامل لابن الأثير ٩ / ٨ - ٩ : الباهر : ٦٦ - ٧١ .
- ٥ - أوسع التفاصيل حول هذه الحملة متوفرة في نصوص موسوعتنا .
- ٦ - لدينا تفاصيل شاهد عيان لاستعادة الرها في رواية السرياني المجهول فلتنظر ضمن النصوص السريانية من موسوعتنا .
- ٧ - وليم الصوري ج ٢ ص ٧٧٩ - ٧٨٧ . ابن القلاسي : ٤٦٢ - ٤٦٥ . الروضتين لأبي شامه ج ١ ص ٥١ - ٥٣ .
- ٨ - وليم الصوري ج ٢ ص ٨١٥ . ابن القلاسي : ٥٠٢ - ٥٠٥ . مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٨ . الباهر ١٠٧ - ١٠٨ .
- ٩ - الباهر : ١٠٧ .
- ١٠ - ابن القلاسي : ٥٢١ - ٥٣٦ . وليم الصوري : ٨٤٥ - ٨٥٨ . الروضتين ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١ .
- ١١ - جلب صلاح الدين هنا المنبر إلى القدس بعد تحريرها وظل مسجوناً في المسجد الأقصى حتى إحراره مع قسم من هذا المسجد إثر حرب ١٩٦٧ .
- ١٢ - الكامل : ١١ / ١٣٨ ، الباهر : ١١٩ - ١٢٠ ، الروضتين ١ / ٨٥ - ٨٨ / ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، المحاسن اليوسفية : ٦٥ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٠ - ٤٢ ، زينة الحلبي : ٢ / ٢٥٥ .
- ١٣ - الروضتين : ١٠٠ / ١ .
- ١٤ - لقد عالجت هذه القضايا بشكل مفصل في كتيبي التالية : منخل إلى تاريخ الصروب الصليبية . الدعوة الاسماعيلية الجديدة الجامع في أخبار القرامطة - تاريخ العرب والإسلام . فلتنظر .
- ١٥ - النوادر السلطانية : ٣٦ ، سنا البرق الشامي : ٦٠ - ٦١ ، الباهر : ١٢٢ ، الروضتين : ١ / ٢٢٩ - ١٣٢ ، شفاء القلوب : ٢٥ - ٤٦ ، نور الدين لمؤنس : ٢٨٩ - ٢٩٧ .
- ١٦ - الروضتين : ١ / ١٤٢ - ١٤٥ ، النوادر السلطانية : ٣٧ - ٣٩ ، سنا البرق الشامي : ٦٢ / ١ - ٦٥ ، مرآة الزمان : ١ / ٣٦٨ - ٣٧٠ ، الباهر : ١٣٢ - ١٣٤ ، شفاء القلوب : ٢٨ - ٣١ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٣ ، مؤنس : ٢٩٧ - ٣٠٤ .
- ١٨ - سنا البرق الشامي : ٧٧ - ١١٥ ، النوادر السلطانية : ٤١ - ٤٥ ، الروضتين : ١ / ١٧٨ - ٢٠٣ ، الباهر : ١٤٣ - ١٥٩ ، مرآة الزمان : ١ / ٢٧٩ - ٢٩٥ ، النجوم الزاهرة : ١٦ / ٦ - ٢٤ .
- ١٩ - الروضتين : ١ / ١٥٩ ، الباهر : ١٥٦ - ١٥٨ ، خطط المقرئني : ١ / ٨٦ - ٨٧ ، السلوك : ١ / ١ / ٧٥ ، دراسات في حضارة الإسلام لجب : ٩٧ - ١٠٣ .
- ٢٠ - الباهر : ١٥٨ - ١٦٢ ، الروضتين : ١ / ٢٠٦ - ٢٣١ ، سنا البرق الشامي : ١٢٣ / ١ - ١٥٥ ، النوادر السلطانية : ٤٥ - ٤٧ ، مرآة الزمان : ١ / ٢٩٢ - ٣٢٥ ، النجوم

- ١٣٨٦ -

الزاهرة : ٦ / ٦٤ - ٧١ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٨ - ٥٥ ، نور الدين : ٣٤١ - ٣٥٧ ، جب :
١٠٠ - ١٠٢ .

٢١ - انظر كتابي امارة حلب - ط دمشق ، دار الكتاب العربي من ٣٤ - ٤٢ ،
٩٦ - ١٠٢ .

الفصل الثالث

١ - سنا البرق الشامي : ١٥٥ - ٣٥٩ ، البهاهر : ١٧٦ - ١٨٤ ، الروضتين :
١ / ٢٣١ - ٢٧٩ ، ٢ / ٣ ، ٧٤ ، النوادر السلطانية : ٥٠ - ٧٥ ، زينة الحلب :
٢ / ٩ ، ٦٧ ، مرآة الزمان : ١ / ٣٢٦ - ٣٨٨ ، شفاء القلوب : ٨٤ - ١٠٩ ، النجوم الزاهرة :
٦ / ٧٣ - ١٠٤ ، السلوك : ١ / ١ ، ٥٨ / ٩٢ .

٢ - يقع حصن الكرك على مقربة من البحر الميت ، على الطريق الواصلة بين مصر والشام ويتحكم بها ، وكان صاحب الكرك فارس صليبي متعصب جدا فيه عجرفة ورعونة شديدة ، اسمه رينودي شاتيون ، وقد عرفه العرب باسم أرناط ، وفي سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٧ م ، هاجم أرناط قافلة مسلمة كانت قادمة من القاهرة الى دمشق ، فانتهب ثرواتها ، وأسر النين كانوا فيها ، وفي مواجهة هذا الحادث تذرع صلاح الدين في البداية بالحلم والصبر ، فأرسل وقفا الى أرناط يطلب منه اطلاق سراح الاسرى ، ورد المنهوبات ، فرفض أرناط بكل قحة وتحدي ، وهنا أرسل صلاح الدين مبعوثا الى ملك القدس ، فلم يستطع هذا فعل شيء ، وأدى هذا الحال الى اعتبار صلاح الدين أن الهننة بينه وبين الفرنجة لاغية ، فاستتفر قواته ، وقرر الزحف على رأس عساكره ، الزحف الذي قاده الى حطين .

٤ - قبل لويبة على اليسار ، وما بين لويبة وقرية ناصر الدين ، وامتدانا إلى الجنوب حيث قرية كفر سبت في منطقة الشجرة .

٥ - الفتح القسي : ٣٦ - ٥٠ ، النوادر السلطانية : ٤٩ - ٥٥ ، الروضتين : ٧٥ - ٨١ ، الأندلس الجليل : ١ / ٣١٦ - ٣٢١ ، عيون الروضتين : ٢٣٣ - ٢٣٩ ، شفاء القلوب : ١٢٨ - ١٣٠ ، الكامل لابن الاثير : ١١ / ٥٤٦ - ٥٥٣ ، شذرات الذهب : ٤ / ٢٧٤ - ٩٣ ، المختصر في اخبار البشر : ٣ / ٧١ - ٧٤ ، طبقات الشافعية : ٤ / ٣٢٥ - ٣٤١ ، زينة الحلب : ٨٢٩ - ٨٤٦ ، مرآة الزمان : ١ / ٣٨٩ - ٤٠٢ ، الاعلام والتبيين : ٨١ - ٨٥ ، الحروب الصليبية لرفيق التميمي : ٥٥ ب - ١٦٧ ، حياة صلاح الدين الايوبي لاحمد بيبي : ١٥٣ - ٢١٠ ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب : ٥٦ - ٦٩ .

٦ - ابن شداد : ٧٩ - ٩٧ ، ١٣٦ الفتح القسي : ٧٦ - ١٠٩ ، الروضتين : ٢ / ٨٧ - ١٣٥ .

٧ - ابن شداد : ١٠٤ - ١٠٥ .

٨ - الفتح القسي : ٣٠٢ - ٣٠٣ ، الروضتين : ٢ / ١٤٨ - ١٦٢ ، ابن شداد : ١٠٩ - ١١٥ ،
٩ - الفتح القسي : ٢٩٨ - ٢٩٩ .

١٠ - ابن شداد : ١٠٣ - ١٧٢ ، الفتح القسي : ٢٩٦ - ٥١٣ ، الكامل في التاريخ :
١٢ / ٣٢ - ٦٨ ، الروضتين : ٢ / ١٤٢ - ١٩٠ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ١٠٤ - ١١٣ .

١١ - انظر ملحة رشارد قلب الاسد ضمن كتب موسوعتنا .

١٢ - ابن شداد : ١٧٤ - ٢٤٨ ، الفتح القسي : ٥٢٨ - ٦٢٧ ، الكامل لابن الاثير :
١٢ / ٦٣ - ٩٥ ، الروضتين : ٢ / ١٩٠ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ١١٢ - ١٣٢ .

الفصل الرابع

- ١ - وليم الصوري - الأعمال المنجزة : ج ٢ ، ص ٣٧٥ .
ابن شداد - الحاسن اليوسفية : ص ٤٩ - ٥٥ .
- أبو شامة - الروضتين : ج ٢ ، ص ٧٥ - ٨١ .
- العماد محمد بن محمد الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدي ، ط القاهرة
ص ٣٦ - ٥٠ .
- مجير الدين العلمي الحنبلي ، الاذس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط . عمان ١٩٧٣ .
ج ١ ، ص ٣١١ - ٣٢١ .
- الحنبلي ، شفاء القلوب : ص ١٢٨ - ١٣٠ .
ابن العديم : زينة الحلب ، ج ٣ ، ص ٨٣٩ - ٨٤٦ .
- سبط ابن الجوزي - المرات : ج ١ ، ص ٣٨٩ - ٤٠٢ .
- اسماعيل بن عمر بن كثير - البداية والنهاية . ط . القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٣ ، ج ١٢ ،
ص ٣٢٢ - ٣٢٧ .
٢ - ابن شداد - الحاسن ص ١٧٤ - ٢٤٨ .
- العماد الاصفهاني ، الفتح ، ص ٥٢٨ - ٦٢٧ .
ابو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٠ - ٢١٣ .
٣ - العماد الاصفهاني ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .
- ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .
- أبو شامة ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .
٤ - ابن واصل ، مفرح : ج ٢ ص ٢٧ - ٦١ .
- أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ - ٢٣١ .
- المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١١٧ - ١٤١ .
- اسماعيل بن علي أبو الفداء صاحب حماء ، المختصر في أخبار البشر دار المعرفة ، ج ٣ ،
ص ٦٦ - ١٠٠ .
- يوسف بن تفرج بردي ، النجوم الزاهرة في معرفة ملوك مصر والقاهرة ط . القاهرة
١٩٢٩ - ١٩٣٦ ، ج ٦ ، ص ١١٦ - ١٢٢ .
٥ - أبو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٧ - ١٧٥ .
- المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٨ - ٢٤١ ، ٣٠٥ - ٣١٥ .
- أبو الحاسن ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .
- أبو شامة ، نيل الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٤ - ١٧٨ .
٦ - ابن واصل ، مفرح ، ج ٤ ، ص ٢٤١ - ٢٥٣ .
- المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٦٨ - ٢٧٥ ، ٣٣٩ - ٣٦٠ .
- محمد بن علي بن نظيف الحموي ، التاريخ المنصوري ، ط . دمشق ، ١٩٨٢ ،
ص ١٧٦ - ١٩٤ .
- احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ط . بيروت ١٩٦٩ م ص ١٠٤ - ١١٣ .
٧ - ابن واصل ، مفرح ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ - ٣٤٠ .
- محمد بن احمد ابن أبياس - بدائع الزهور في وقائع النور - ط . القاهرة

- ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، ج ١ ، ص ٧٠ .
- المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٩ - ٤٤٠ .
- الخطط (المواعظ والاعتبار) ط . بيروت ، مطبعة احياء العلوم ج ٢ ، ص ١١٦ ، ٢١٧ .
- ابو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .
- العبادي ، قيام ، ص ٦٣ - ١٤٤ .
- ابو المحاسن ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٣٠٩ .
٨ - ابن واصل - مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤١ - ٢٥٣ . ابن نظيف - التاريخ المنصوري ص ١٧٦ - ١٩٤ .
المقرئزي - السلوك ج ١ ، ص ٢٦٨ - ٢٧٥ . فولفغانغ مولر ، - القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٢٧ - ٢٩ . زكار - حطين ص ١٧١ - ١٨٥ .
٩ -
١٠ - المقرئزي - السلوك ج ١ ص ٢٣٩ - ٣٦٠ . جوزيف تسيم - العدوان الصليبي على مصر ص ١٩٧ - ٢٥٧ .
العبادي - قيام دولة المماليك الأولى ص ١٠٤ - ١١٣ .
١١ - المقرئزي - السلوك ج ١ ، ص ٣٦١ - ٣٦٨ . أبو الفداء - المختصر ج ٣ ، ص ١٨١ - ١٨٢ . العبادي - قيام دولة المماليك الأولى ص ١١٠ - ١٢١ . ، جوسوزيف نسيم - العدوان ص ٣٦٦ - ٣٦٨ .
١٢ - المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٠ - ٣٦٥ ، وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨١ ، ١٨٢ ، والعبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١١٠ - ١٢١ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على مصر ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٤٥ - ٨٨ .
١٣ - المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٧ - ٣٨٩ ، وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨٢ - ١٨٧ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٣٩ - ١٨٧ ، ويوسف غوانمة ، إمارة الكرك الأيوبية ، ص ٢٨٨ - ٢٩٩ .
١٤ - انظر : فولفغانغ ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص ٢٧ - ٣٠ .
١٥ - أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٣ ، ومحمد بن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ومحمد بن عبد الله اللواتي (ابن بسطوة) ، رحلة ابن بسطوة ، ص ٣٠ - ٣٣ ، وأحمد بن عبد الله القلة شندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .
١٦ - يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٩٥ ، ٩٩ ، وأنتوني بروج ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٢٧٥ - ٢٨٠ ، وعادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١٤٤ - ١٦٥ .
١٧ - المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٨ - ٣٨٥ ، وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨٣ - ١٨٧ ، والعبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٢٥ - ١٢٩ ، وغوانمة ، إمارة الكرك الأيوبية ، ص ٢٨٨ - ٢٩٩ .
١٨ - أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٩٣ - ١٩٥ ، وعمر بن الورد ، تمتة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٣ ، وإسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٨٤ ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، الصرعة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، والعبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٦٥ - ١٧٠ .
٢١ - يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٧٢ .
٢٢ - المرجع نفسه ، ص ١٧٦ - ١٧٩ .

- ٢٣ - أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٩٥ ، وعبد الرحمن بن خلدون ، العبر
واديان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٣ ، والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٨٥ ؛ وابن تغري
بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠ ؛ ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ،
ص ١٨٥ - ١٨٦ ؛ وغوانمة ، إمارة الكرك الأيوبية ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ؛ والعباسي ، قيام دولة
المماليك الأولى ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .
- ٢٤ - يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٩٧ - ٢٢٣ ، ٢٤٦ - ٣٥١ ؛
والعباسي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٤١ ؛ وغوانمة ، إمارة الكرك الأيوبية ،
ص ٢٩٥ - ٢٩٧ .
- ٢٥ - العباسي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٢٨ - ١٤١ ، وغوانمة ، إمارة الكرك
الأيوبية ، ص ٢٩٧ - ٢٩٩ .
- ٢٦ - انظر في هذا الصدد : برتولد شيبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ؛ ورينيه
غروسية ، جنكينز خان ، عطاء الملك الجويني ، تاريخ فاتح العالم ؛ وجعفر خصباك ، العراق في عهد
المغول الايلخانيين ؛ ومصطفى طه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والاسلام ؛ وفؤاد عبد المعطي
الصياد ، المغول في التاريخ ؛ ورشيد الدين فضل الله الهمذاني ، جامع التواريخ .
- ٢٧ - عبد الرحمن بن أمي بكر السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٧ - ٤٧٩ ؛ وأحمد
اليونيني البعلبكي ، نيل مرلة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٤٩ - ٣٧٤ ، ٣٨٠ - ٣٨٤ ، ج ٢ ،
ص ٢٨ - ٣٦ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٢ - ٤٣١ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم
الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٩ ؛ وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٣١٤ ، وعبد
الرحمن بن إسماعيل - أبو شامة ، نيل الروضتين ، ص ٢٠٨ ؛ والعباسي ، قيام دولة المماليك
الأولى ، ص ١٤٧ - ١٦٧ ، ٢٥٤ - ٢٦٨ ؛ وغوانمة ، إمارة الكرك الأيوبية ،
ص ٢٩٩ - ٣٠٩ ؛ ومحمد أحمد همام ، ولاية دمشق في عهد المماليك ، ص ٥٢ - ٥٥ .
- ٢٨ - المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ .
- ٢٩ - اليونيني ، نيل مرلة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .
- ٣٠ - المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٣٠ - ٥٥٠ .
- ٣١ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ص ٦٨ ؛ وسعيد عبد الفتاح
عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٣٦ - ٤٤ ؛ والعريضي ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٤٥ - ٦٢ .
- ٣٢ - لمزيد من التفاصيل انظر : زكار ، مدخل إلى تاريخ الصروب المملوكية ،
ص ١٧٦ - ١٩٦ ؛ أحمد بن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص ١٩١ - ١٩٤ .
- (وقد ترجمت هذا الكتاب إلى العربية ونشرته في بيروت) ؛ ولا بيدوس ، مدن الشام ،
ص ٢٠٥ - ٢٢٠ .
- ٣٣ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١١٨ .
- ٣٤ - المصدر نفسه ، ص ١١٩ - ١٢٠ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١٠ ، ص ٤٦٠ - ٤٦٤ ؛
وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٠١ .
- ٣٥ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٢١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ - وعالج يوسف غوانمة
سقوط الكرك بقدر كبير من التفصيل في كتابه 'إمارة الكرك الأيوبية' ، ص ٣١٠ - ٣٣٣ .
- ٣٦ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٧ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ،
ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .
- ٣٧ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ،
ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .
- ٣٨ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٨ - ١٦٦ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ،
ص ٤٨٧ - ٤٩٣ ؛ واليونيني ، نيل مرلة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٩٢ - ١٩٤ .

- ٣٩ - ستيفن رنسيمان ، تاريخ الصروب الصليبية (ترجمة عربية) ، ج ٣ ، ص ٥٥٤ - ٥٥٥ .
- ٤٠ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٧ - ٥٣٤ ؛ واليونيني ، نيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣١٧ - ٣٢٠ ؛ وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢ ، ورنسيمان ، تاريخ الصروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٤٦ ؛ وسرور ، بيبرس ، ص ٧٠ - ٧١ .
- ٤١ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٣٤ - ٢٤٣ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٧ - ٥٥٧ ؛ واليونيني ، نيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ ؛ وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢ ؛ وسرور ، بيبرس ، ص ٧٠ ؛ والعباسي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٢٤ ؛ والديباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٢٥٠ - ٣٥٤ .
- ٤٢ - المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥٧ ، وج ٢ ، ص ٦٧٤ ؛ وابن تفرج بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٥ ؛ والديباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .
- ٤٣ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .
- ٤٤ - ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ص ١٤٦ - ١٤٨ ؛ وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة صفد ؛ وأبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ؛ وابن شيخ الربرة ، نخبة النهر ، ص ٢١٠ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٨٤ - ٨٨ .
- ٤٥ - ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ص ١٤٦ - ١٥١ ؛ وابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٥٤ - ٢٦٧ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤٥ - ٥٤٨ ؛ وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٣ ؛ واليونيني ، نيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ - ٣٤٣ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٧ ؛ وابن تفرج بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ؛ وسرور ، بيبرس ، ص ٧٢ ؛ وعاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٦٥ - ٦٧ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٤٨ - ٥١ ؛ ورنسيمان ، تاريخ الصروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٠ - ٥٥١ ؛ والعباسي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٢٤ ؛ وزكار ، حطين ، ص ١٦١ .
- ٤٦ - ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ص ١٥٠ - ١٥١ ؛ وابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٨٠ - ٢٨٧ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .
- ٤٧ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٦٤ - ٥٦٥ ؛ واليونيني ، نيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ - ٣٧٦ .
- ٤٨ - سرور ، بيبرس ، ص ٧٥ - ٨٨ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٥٤ - ٥٥ ؛ ورنسيمان ، تاريخ الصروب ، ج ٣ ، ص ٥٥٦ ، ٥٦١ ؛ والعباسي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٢٥ - ٢٢٩ .
- ٤٩ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٦٢ - ٣٦٤ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٨٥ ؛ واليونيني ، نيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٣٠ - ٤٣٤ ؛ وأحمد بن علي المقرئزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ٨٦ - ٩٥ .
- ٥٠ - مصطفى طه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والاسلام ، ص ٦٢ - ٧٣ ؛ وشوبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، ص ٦١ - ٧٧ .
- ٥١ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٨٥ - ٣٨٧ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٣ ؛ وابن تفرج بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٣ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٩ ؛ واليونيني ، نيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ - ٤٥٦ ؛

- والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٥٦ - ٥٧ ، ١١٧ .
٥٢ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٨٦ - ٣٩٠ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٥ .
٥٣ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٩٨ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٦٣ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠١ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة = ٧ ، ص ١٥٧ ؛ واليونيني ، نيل مرلة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٧١ ؛ وابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ص ٢٣ ؛ وسرور ، بيبيرس ، ص ٨٨ - ٩٠ ؛ والعباسي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ٢٢٨ - ٢٣٩ .
٥٤ - المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٢ - ٦٥٣ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٦٣ - ٢٧٠ .
٥٥ - ابن عبد الظاهر ، تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٨٢ ؛ وعبد الرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٣٠٤ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٨٥ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ ؛ واليونيني ، نيل مرلة الزمان ، ج ٤ ، ص ٥٣ - ٨٦ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٥٨ - ٥٩ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٢ .
٥٦ - ابن عبد الظاهر ، تشریف الايام ، ص ٢١٠ - ٢١١ ؛ وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٠٥ ؛ واليونيني ، نيل مرلة الزمان ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، ٨٦ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٥ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٢ .
٥٧ - ابن عبد الظاهر ، تشریف الايام ، ص ٢ - ٢٢ ؛ - وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٢ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٥٩ ؛ ونسيان ، ج ٣ ، ص ٦٧٠ - ٦٧٢ .
٥٨ - ابن عبد الظاهر ، تشریف الايام ... ، ص ٣٤ - ٤٣ ؛ وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٦٢ - ٢٧٠ ؛ والقلةشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٥١ .
٥٩ - ابن عبد الظاهر ، تشریف الايام ، ص ٢٦٢ - ٢٧٠ ؛ واليونيني ، نيل مرلة الزمان ، ج ٤ ، ص ٩١ - ٩٤ ؛ وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١٤ - ١٦ ؛ وابن تغري البردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٤٨ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٩١ - ٦٩٨ .
٦٠ - ابن عبد الظاهر ، تشریف الايام ، ص ٦٣ ، ٦٦ ، وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ج ٧ ، ص ٦٧ ؛ ومحمد بن طولون الصالحي ، اعلام الوری بمن ولي ثابثا من الاتراك بدمشق والشام الكبرى ، ص ٧ - ٨ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣ - ٢٥ .
٦١ - المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٤٦ - ٧٤٧ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢٠ ؛ وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٣ - ٢٤ ؛ والحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبي في أيام المنصور وبنيه ، ج ١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٢٨ - ٢٣٩ ؛ ونسيان ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٨٥ - ٦٨٨ .
٦٢ - ونسيان ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٧٣ - ٦٨٢ .
٦٣ - ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٣ - ٩٧ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥٣ - ٧٥٤ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٧ ؛ ومحمد بن قايماز الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ؛ ونسيان ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٩٠ - ٦٩٢ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .
٦٤ - ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٧ ؛ وابن عبد الظاهر ، تشریف الايام ، ص ١٧٧ - ١٧٩ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ ؛ والمقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥٤ ؛ وابن حبيب ، تذكرة النبي ، ج ١ ، ص ١٣٥ ؛ والنمبي ، دول الاسلام ،

- ج ٢ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ : وأبو الفدح ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٣ - ٢٤ :
وابن تفرج بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٨٢ : وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٤٢ :
ورنسيما ، تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٦٩٣ - ٦٩٤ .
- ٦٥ - المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦٣ : وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ،
ص ٩٨ ، ١١٠ : وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ : وابن تفرج بردي ، النجوم
الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٣ - ٥ : وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٤ - ٢٥ :
والنهي ، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٩ : ورنسيما ، تاريخ العرب ... ، ج ٣ ، ص ٦٩٥ .
- ٦٦ - أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٤ - ٢٦ : وابن الفرات ، تاريخ
ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١١٠ - ١١٤ : وابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٣٧ - ١٣٩ :
والمقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦٤ - ٧٦٦ : وابن تفرج بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ،
ص ٥ - ١١ : وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ : والنهي ، دول
الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٩ - ١٩٢ : ورنسيما ، تاريخ العرب ... ، ج ٣ ،
ص ٦٩٤ - ٧١٢ : وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٤١ - ٢٤٤ : والطراونة ، مملكة صفد ،
ص ٦٣ - ٦٨ .

جريدة أهم المصادر والمراجع

- إبراهيم بن أبي الدم ، تاريخ ابن أبي الدم ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة البودليان مارش ٦٠ .
- إبراهيم بن محمد الاصطخري ، المسالك والممالك ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦١ .
- إبراهيم محمد علي مهدي ، « إدارة القدس في عهد المماليك » ، (رساله لنيل شهادة الماجستير ، غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- أحمد بيلى ، حياة صلاح الدين الايوبى ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٢٦ .
- أحمد دراج ، وثائق بير صهيون بالقدس الشريف ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ .
- أحمد بن عبد الحلیم (ابن تيمية) ، الحسبة ، القاهرة ، كتاب الجمهورية الدينى ، د . ت .
- أحمد عبد الحلیم يونس ، مدينة صدد في عهد المماليك ، (رسالة لنيل شهادة الماجستير ، غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- أحمد بن عبد الله القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩١٠ - ١٩٢٠ .
- ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٤ .
- ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، الكويت ، وزارة الارشاد والأنباء ، ١٩٦٤ .
- أحمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي .

- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، انباء الغمر بأبناء العمر ،
القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، ١٩٦٩ .
- ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، طبعة مصورة ،
بيروت ، دار الجليل ، د . ت .
- أحمد بن علي المقرئزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ،
لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٥٧ .
- ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ، مطبعة
إحياء العلوم ، د . ت .
- ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ،
القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥ .
- ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ، لجنة التأليف
والترجمة ، ١٩٧٠ - ١٩٧٣ .
- ، شذور العقود بذكر النقود ، النجف ، المطبعة الحيدرية ،
١٩٦٧ .
- ، المقفى الكبير في تراجم أهل مصر والوافنين عليها .
- أحمد بن عمر بن رسته ، كتاب الأعلام الذفيسة ، لندن ، مطبعة
برل ، ١٨٩٢ .
- أحمد عيسى ، اليمارستانات في الاسلام ، بيروت ، دار الرائد
العربي ، ١٩٨١ .
- أحمد بن فضل الله ، التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ،
مطبعة العاصمة ، ١٣١٢ هـ .
- أحمد بن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، دمشق ، وزارة الثقافة
والارشاد القومي ، ١٩٧٧ .
- أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات
الاطباء ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٩ .
- أحمد بن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، دمشق ، المعهد
الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٧٧ .
- أحمد بن محمد بن خلكان ، وفيات الأعيان ، القاهرة ، دار
المأمون .

- أحمد بن محمد بن الفقيه الهمذاني ، كتاب البلدان ، لندن ، مطبعة بييرل ، ١٩٨٥ .
- أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، بيروت ، دار النهضة العربية للنشر ، ١٩٦٩ .
- أحمد اليونيني البعلبكي ، نيل مرآة الزمان ، حيدر آباد / الهند ، المطبعة العثمانية ، ١٩٥٤ .
- إسماعيل بن الأثير الحلبي ، عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة المتحف البريطاني (٢٣ - ٣٣٤) .
- إسماعيل بن علي (أبو الفداء صاحب حماة) ، تقويم البلدان ، باريس ، ١٨٤٠ .
- ، المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، مصورة دار المعرفة ، د . ت .
- إسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ .
- إلهام مكّي ، مملكة صفد في العهد المملوكي ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، كلية الآداب - الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٨ .
- أنقوني بردج ، تاريخ الحروب الصليبية ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار قتيبة ، ١٩٨٦ .
- أنور زقلمة ، المماليك في مصر ، القاهرة ، مطبعة المجلة الجديدة ، د . ت .
- ايرامارفين لايبيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٥ .
- برتولد شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .
- بنيامين التاطيلي ، رحلة بنيامين ، (ترجمة عربية) ، بغداد ، المطبعة الشرقية ، ١٩٤٥ .
- جعفر حسين خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ،

- بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٨ .
جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ،
بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .
— ، العدوان الصليبي على مصر ، بيروت ، دار النهضة
العربية ، ١٩٨١ .
— ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، بيروت ،
دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .
جوناثان ايلي سميث ، الاستتارية ، (ترجمة عربية) ، دمشق ،
مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٤ .
حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،
لايبزغ ، ١٨٣٧ .
الحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ،
القاهرة ، وزارة الثقافة ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٧٦ .
حسنين محمد ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ،
القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ .
حكيم أمين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ،
دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ .
حمزة بن أسد بن علي القلانسي ، كتاب تاريخ دمشق ، دمشق ،
دار حسان ، ١٩٨٣ .
حياة ناصر الحجي ، أحوال العامة في حكم المماليك ، الكويت ،
شركة كاظمة للنشر ، ١٩٨٤ .
خليفة بن خياط العصفري ، تاريخ خليفة بن خياط ، دمشق ،
وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٧ .
خليل بن أيبك (،الصلاح الصفدي) ، أمراء دمشق في الاسلام ،
دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٥ .
— ، الوافي بالوفيات ، بيروت ، المعهد الألماني ،
١٩٤٩ - ١٩٧٩ .
خليل بن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق
والمسالك ، باريس ، المطبعة الجمهورية ، ١٨٩٤ .

- خليل ضومط ، الدولة المملوكية ، بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٠ .
- ر . سي . سميث ، فن الحرب عند الصليبيين ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٢ .
- رينيه غروسيه ، جنكيز خان ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .
- زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، كتاب آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، دار الصياد ، ١٩٦٠ .
- ستيفن رذسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، (ترجمة عربية) ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٧ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، « أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك » ، بحث ألقى في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، ١٩٨٠ .
- ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦ .
- ، الحركة الصليبية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٣ .
- ، الظاهر بيبرس ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٣ .
- ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٢ .
- ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ .
- سهيل زكار ، أخبار القرامطة ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .
- ، الحروب الصليبية ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٤ .
- ، حطين ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٤ .
- ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٤ .

السيد الباز العريني ، المماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ،
١٩٦٧ .

صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، بيروت ، دار المشرق ، ١٩٦٧ :
طاشكبري زاده ، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ،
بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٥ .

طه ثلجي الطراونة ، مملكة صافد في العصر المملوكي ، بيروت ،
دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٢ .

عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين المشرق والمغرب في
العصور الوسطى ، دمشق ، دعر دمشق ، ١٩٨٠ .

عبد الجليل حسن عبد المهدي ، المدارس في بيت المقدس ، عمان ،
مكتبة الأقصى ، ١٩٨١ .

عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من
ذهب ، القاهرة ، مكتبة القدسي ، ١٩٣١ - ١٩٣٢ .

عبد الرحمن بن إسماعيل (أبو شامة) ، الروضتين في أخبار
الدولتين مع النيل (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) ،
بيروت ، دار الجيل ، ٤ . ت .

عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات
اللغويين والنحاة ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٥ .
— ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ،
١٩٦٤ .

— ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ، المطبعة
الشرقية ، ١٣٢٧ .

عبد الرحمن بن الجوزي ، فضائل القدس ، بيروت ، دار الآفاق
الجديدة ، ١٩٨٠ .

— ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدرآباد - الهند ، المطبعة
العثمانية ، ١٩٤٠ .

عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا
وشرقا ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٥١ .

- ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨ .
- عبد الرحمن بن محمد العلمي الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، عمان ، مكتبة المحتسب ، ١٩٧٣ ، مصر ، المطبعة الوهيبية ١٢٨٣ هـ .
- عبد الرحمن بن نصر الشيزري ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٩ .
- عبد الرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، بيروت ، المطبعة الاميركانية ، ١٩٣٦ ، ١٩٤٢ ، وبغداد ، مطبعة حداد ، ١٩٦٧ .
- عبد القادر بن محمد النعيمي ، الدارس في أخبار المدارس ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٤٨ .
- عبد الله بن أسعد اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، بيروت ، مؤسسة الاعلمي ، ١٩٧٠ .
- عبد الله بن عبد الله ابن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك ، لينن ، مطبعة برل ، ١٨٨٩ .
- عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ، كتاب مرصد الاطلاع ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٤ .
- عبد الله بن عبد الظاهر (محيي الثنين) ، الاطراف الخفية ، لايبزغ ، ١٩٠٢ ، د . ت .
- ، تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦١ .
- ، الروض الظاهر في سيرة الملك الظاهر ، الرياض ، المحقق ، ١٩٧٦ .
- عبد الوهاب السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، بيروت ، دار الحدائق ، ١٨٣ .
- عنان البخيت ، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، عمان ، جامعة اليرموك ، ١٩٧٦ .
- علي إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧ .

علي أحمد ، « الاندلسيون في بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري » ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة دمشق ، ١٩٨١ .

علي ابن أبي بكر الهروي ، الاشارات إلى معرفة الزيارات ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، ١٩٥٣ .

علي بن الحسن بن عساكر ، تاريخ دمشق ، مخطوطة الظاهرية ، ٥٣١٦ ، عام ٢٠٥ ، د . دمشق ، المجلة الاولى والثانية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥١ ، المجلة العاشرة تحقيق أحمد دهمان ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٦٣ .

علي بن داود الصيرفي ، أنباء الهصر بأبناء العصر ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٠ .

— ، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٠ - ١٩٧٤ .

علي اللبودي ، فضل الاكتساب وأحكام الكسب واداب المعيشة ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة تشسثريتي - ديلن .

علي بن محمد ، أبو الحسن ، (ابن الاثير) ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، القاهرة ، دار الكتاب الحديثة ، ١٩٦٣ م .

— ، الكامل في التاريخ ، القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ١٣٤٨ هـ .

علي بن يوسف القفطي ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، لايبزغ ، ١٩٠٣ .

عمر بن أحمد بن العليم ، زينة الحلب من تاريخ حلب ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٨ .

عمر بن الوردني ، تنمة المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٠ .

فاروق عمر ، تاريخ فلسطين السياسي في العصور الاسلامية ، أبو ظبي ، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ .

فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الاولى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٤ .

- فضل الله الصقاعى ، تالى وفيات الاعيان ، دمشق ، المعهد
الفرنسي ، ١٩٧٤ .
- فولغانغ مولر - فيز ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، (ترجمة
عربية) ، دمشق ، مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٢ .
- قسطنطين خمار ، أسماء الأماكن والمواقع والمعالم الطبيعية
والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين حتى عام ١٩٤٨ ،
بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ .
- كامل جميل العسلي ، من آثارنا في بيت المقدس ، عمان ، جمعية
عمال المطابع التعاونية ، ١٩٨٢ .
- محمد بن أحمد بن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ،
القاهرة ، كتاب الشعب ، ١٩٦٠ - ١٩٦١ .
- محمد بن أحمد بن بسام المحدسببنهاية الرتبة في طلب الحسبة ،
بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٦٨ .
- محمد أحمد دهمان ، ولاية دمشق في عهد المماليك ، دمشق ، دار
الفكر ، ١٩٨١ .
- محمد بن أحمد بن قايمان الذهبي ، دول الاسلام ، القاهرة ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .
- محمد بن أحمد القرشي (ابن الأخوة) ، معالم القرية في أحكام
الحسبة ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦ .
- محمد بن أحمد المقدسي ، كتاب أحسن التقاسيم في معرفة
الأقاليم ، لندن ، مطبعة بريل ، ١٩٠٦ .
- محمد بن جبير ، رحلة ابن جبير ، القاهرة ، مكتبة مصر ،
١٩٥٥ .
- محمد بن جرير الطبري ، كتاب تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ،
دعر المعارف ، د . ت .
- محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ،
دار الفكر العربي ، ١٩٤٧ .
- ، دولة الظاهر بيبرس ، القاهرة ، دار الفكر العربي ،
١٩٦٠ .

- محمد بن حوقل النصيبي ، كتاب صورة الأرض ، بيروت ، دار
مكتبة الحياة ، د . ت .
- محمد بن خليل الأسدي ، التيسير والاعتبار والتحرير
والاختبار ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٧ .
- محمد بن رافع السلامي ، الوفيات ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ،
١٩٨٢ .
- محمد بن سالم بن واصل الحموي ، مفرج الكروب في أخبار بني
أيوب ، الجزء الثاني ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٧ .
- محمد بن شاکر الکتبي ، فوات الوفيات ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- محمد بن الشحنة (ينسب له) ، البدالزاهر في نصره الملك
الناصر محمد بن قايتباي ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٣ .
- محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (شيخ الربوة) ، نخبة
الدهر في عجائب البر والبحر ، ط . مصورة ، بغداد ، مكتبة المثنى .
- محمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، اعلام الوری بمن ولي
نائباً من الأتراك بدمشق والشام الكبرى ، دمشق ، وزارة الثقافة
والارشاد القومي ، ١٩٦٤ .
- ، قضاة دمشق ، دمشق ، (المجمع العلمي العربي) ،
١٩٥٦ .
- ، مفاكهة الخلان ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد
القومي ، ١٩٦٢ .
- محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، التبر المسبوك في نيل
السلوك ، ط . القاهرة ، مكتبة الكليات الاظهرية ، د . ت .
- ، النيل على رفح الاصر عن قضاة مصر ، القاهرة ، دار
المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ .
- ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت ، دار الحياة ،
طبعة مصورة ، د . ت .
- محمد بن عبد الرحمن العثماني ، قطعة من تاريخ صدد ،
محمد العبدري الحيحي ، رحلة العبدري أو (الرحلة المغربية) ،
الرباط جامعة محمد الخامس ، ١٩٦٨ .

- محمد عبد العزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون ، القاهرة ،
وزارة الثقافة والارشاد القومي ، د . ت .
محمد بن عبد الله اللواتي (المعروف بابن بطوطة) ، القاهرة ،
المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٥٨ .
كحمد عبد الهادي شعيرة ، المرابطون ، القاهرة ، مكتبة القاهرة
الحديثة ، ١٩٦٩ .
محمد بن عبد الواحد الحنبلي ، فضائل بيت المقدس ، دمشق ،
دار الفكر ، ١٩٨٥ .
محمد بن علي بن شداد ، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام
والجزيرة ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، ١٩٦٢ .
— ، تاريخ الملك الظاهر ، بيروت ، المعد الألماني ، ١٩٨٣ .
محمد بن علي الحموي ، التاريخ المنصوري ، دمشق ، مجمع
اللغة العربية ، ١٩٨٢ .
محمد بن علي الشوكاني ، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن
السابع ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٤٨ هـ .
محمد علي العظيمي ، تاريخ حلب ، دمشق ، المحقق ، ١٩٨٤ :
محمد عيسى صالحية ، حوليات كلية الآداب ، من وثائق الحرم
القدس الشريف المملوكية ، الرسالة السادسة والعشرون ، الكويت ،
١٩٨٥ .
محمد كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ، مكتبة النوري ،
١٩٨٣ .
محمد بن محمد بن مصري ، الدرر المضيئة في الدولة الظاهرية ،
كاليفورنيا ، ١٩٦٣ .
محمد بن محمد (العماد الأصفهاني) ، الفتح القسي في الفتح
القدس ، القاهرة ، مطبعة الموسوعات ، ١٣٢١ هـ .
محمد بن محمود الحلبي (الملقب بابن أجا) ، العراق بين
المماليك والعثمانيين الأتراك ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٦ .
محمد بن محمود بن خليل الحلبي ، تاريخ الأمير يشوبك
الظاهري ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٣ .

- محمد بن يحيى بن الجيعان ، القول المستطرف في سفر مولانا
الملك الأشرف ، بيروت ، جروس - برس ، ١٩٨٤ .
- محمود بن أحمد بن موسى (بدر الدين العيني) ، السيف المهند
في سيرة الملك المؤيد (شيخ الحمودي) ، القاهرة ، دار الكاتب
العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ .
- ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، القاهرة ، دار إحياء
الكتب العربية ، ١٩٦٢ .
- مصطفى طه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والاسلام ،
القاهرة ، دار الفكر العربي ، د . ت .
- مصطفى مزاد الدباغ ، بلاننا فلسطين ، بيروت ، دار الطليعة ،
١٩٦٥ ، ١٩٧٦ .
- ، الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في فلسطين ،
بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٨١ .
- مظهر شهاب ، تيمورلنك ، (أطروحة دكتوراه غير منشورة) ،
الجامعة اليسوعية بيروت ، ١٩٨١ .
- منصور بن بكرة الذهبي ، كشف الأسرار العلمية بدأر الضرب
المصرية بيروت ، ١٩٨١ .
- مؤرخ شامي مجهول ، حوليات دمشق ، القاهرة ، مكتبة
الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ .
- المورد ، مجلة تراثية فصلية ، « الفكر العسكري عند
العرب » ، المجلد الثاني عشر العدد الرابع بغداد ١٩٨٣ .
- ناصر خسرو ، سفرنامه ، (ترجمة عربية) ، القاهرة ،
١٩٤٥ .
- نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ،
بيروت ، محمد أمين دمج وشركاه ، ١٩٤٥ .
- نقولا زياته ، « فيلكس فابري في فلسطين » ، (بحث ألقى في
المؤتمر الثالث لبلاد الشام) ، عمان ، ١٩٨٠ .
- ياقوت بن عبد الله الحموي ، إرشاد الأريب إلى المعرفة الأريب
(معجم الأدباء) ، القاهرة ، دار المأمون ، ١٩٠٧ - ١٩٢٧ .
- ، معجم البلدان ، بيروت ، دار الصياد ، د . ت .

- يوسف بن تغري بردي ، (أبوالمحسن) ، المنهل الصافي
والمستوفى بعد الوافي ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ،
١٩٥٦ .
- ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ط .
مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦ .
- ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ،
ط . مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، د . ت .
يوسف غوانمة ، إمارة الكرك الأيوبية ، عمان ، دار الفكر ،
١٩٨٢ .
- ، تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى ، وزارة
الثقافة والشباب ، عمان ، دار الفكر ، ١٩٨٢ .
- ، تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى ، وزارة
الثقافة والشباب ، عمان ، ١٩٧٩ .
- ، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ، عمان ، دار
الحياة ، ١٩٨٢ .

المحتوى

- ٣ - توطنة
٩ - الباب الأول
١٠ - الفصل الأول - الانتقال من العصور الكلاسيكية إلى العصور الوسطى .
١٧ - المسيحية والعالم الروماني
٢٧ - الامبراطورية الرومانية والشعوب البربرية
٥٣ - الامبراطورية البيزنطية والحضارة الارثوذكسية الشرقية .
٥٦ - الامبراطورية البيزنطية وخصومها .
٧٢ - الفصل الثاني - الفرنجة ودولهم، الدولة الميروفنجية
٧٩ - حضارة الدولة الميروفنجية، الحياة الاقتصادية
٨١ - الحياة الفكرية والفنية
٨٢ - الحياة الدينية - الكنيسة الميروفنجية
٨٥ - الحياة الرهبانية
٨٧ - بريطانيا - المملكة الانكلوسكسونية
٩١ - النظم الأنكلو - سكسونية
٩٥ - الامبراطورية الكارولنجية
٩٦ - تأسيس الملكية الكارولنجية بين القصير
٩٨ - بين القصير والكرسي المقدس
١٠٠ - بين وزعيم السلطة الملكية
١٠١ - شخصية شارلمان وبداية حكمه
١٠٢ - التدخل في ايطاليا
١٠٤ - أعمال شارلمان التوسعية والحروب مع السكسون
١٠٦ - الحرب مع العرب في اسبانيا
١٠٧ - اخضاع بافاريا والافار
١٠٨ - تدويج شارلمان امبرطورا
١١٤ - انحلال الامبراطورية الكارولنجية
١١٧ - المنازعات العائلية وتقسيم الامبراطورية
١١٨ - معاهدة فردان
١١٩ - الممالك الفرنجية وأواخر الكارولجنيين
١٢١ - جرمانيا
١٢٦ - خلفاء شارل الأصلع
١٢٩ - الحضارة الكارولنجية - الحياة الاقتصادية
١٣٣ - المجتمع
١٣٥ - نظام الحكم والادارة
١٣٦ - الحرب
١٣٨ - التنظيم الاداري
١٤٠ - إغناء الصبغة الدينية على المملكة
١٤١ - الكنيسة الكارولنجية

- ١٤٥ - الحياة الفكرية والفنية
١٤٩ - الفايكنغ
١٥٣ - اغارات الفايكنغ على الامبراطورية الكارولنجية
١٦١ - غارات الفايكنغ على انكلترا
١٦٤ - غزوات الفايكنغ لاييرلندا
١٦٦ - الفايكنغ في الجزر الشمالية
١٦٦ - توسع السويديين شرقا
١٦٩ - حضارة الفايكنغ
١٧١ - آسرة كايبة في فرنسا
١٧٦ - الامبراطورية الكارولنجية، بيزنطة وشارلمان
١٧٩ - فترة حكم نذفور
١٩٠ - الاسرة العمورية
٢١٠ - فترة حكم الاسرة المقدونية
٢١٤ - العلاقات البيزنطية العربية
٢٢٥ - العلاقات مع البلغار والمجر
٢٢٩ - العلاقات بين بيزنطة والروس
٢٣٢ - العلاقات مع ايطاليا وأوروبا الغربية
٢٣٤ - شؤون الكنيسة
٢٤١ - الباب الثاني
٢٤٢ - الفصل الأول - الطور الأول من تاريخ الحروب الصليبية (الاحتلال)
٢٦٦ - البيرونيون أتابكة دمشق
٢٦٢ - الفصل الثاني - المرحلتان الاولى والثانية من حروب الاسترداد في الطور الثاني
٢٩٣ - قيام صلاح الدين
٣١٧ - الفصل الثالث - المرحلة الثالثة من حروب الاسترداد في الطور الثاني (مرحلة دمشق :
٣٦٣ - حصاد حطين
٣٩٩ - الفصل الرابع - المرحلة الرابعة من حروب الاسترداد في الطور الثاني (مرحلة القاهرة)
٤٥١ - الحواشي
جريدة المصادر والمراجع